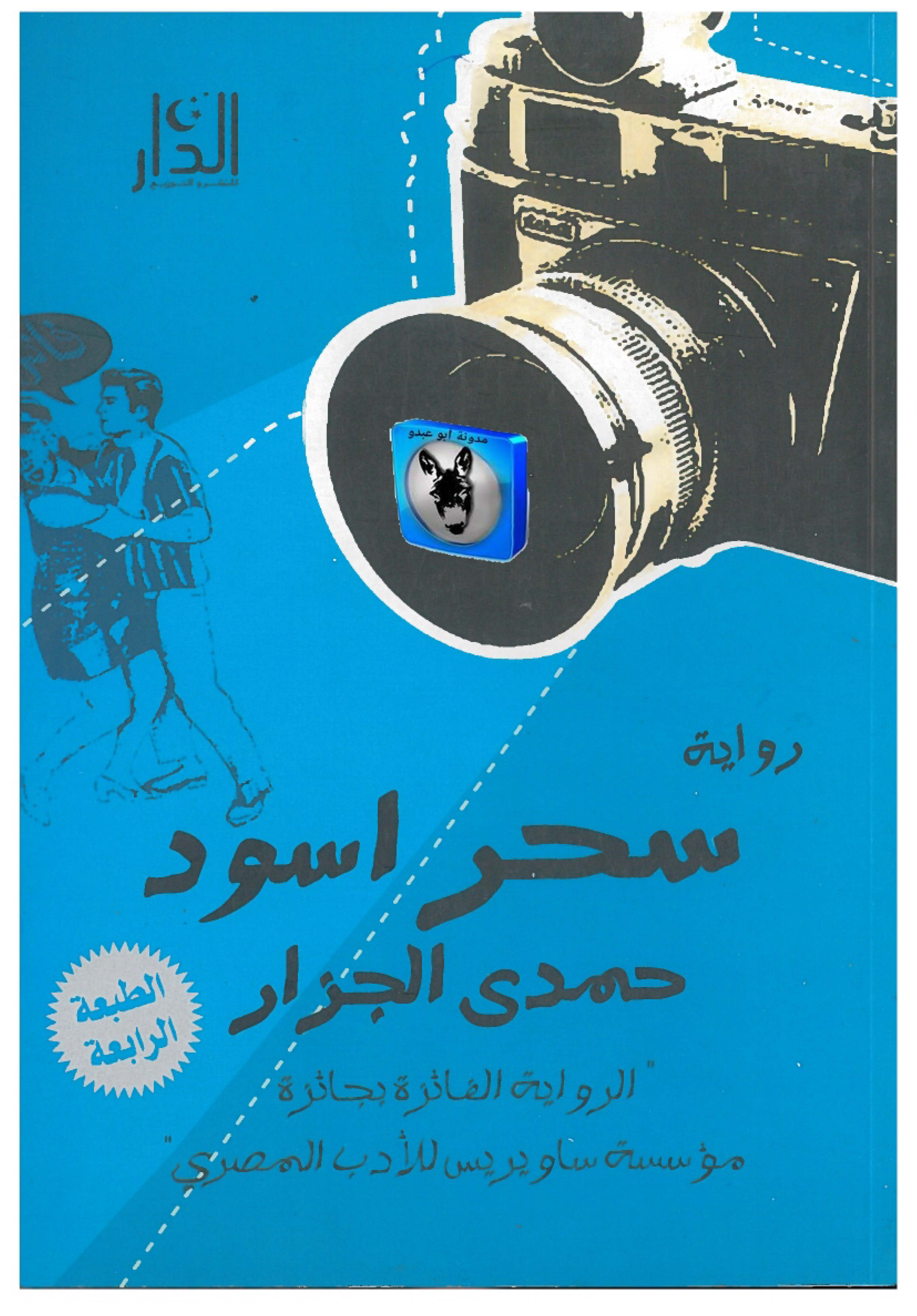


الدار
مدونة ابو عبدو
رواية
سحر اسود
حمدى الجزار
الطبعة الرابعة
"الرواية الفائزة بجائزة
مؤسسة ساويرس للأدب المصري"

سِحْر أسود

رواية

حمدى الجزار

الطبعة الرابعة
٢٠١٠
الدار
الدار للنشر والتوزيع

اسـم العمـل : سحر أسود

النـــوع : روايـــة

تـــأليف : حمدى الجزار

الطبعة الرابعة : فبراير ٢٠١٠

تصميم الغلاف : عمرو الكفراوى

إخـراج داخلـى : رأفت أبو عيسى

الطباعـــة : مطبعة آتيليه تاتش - المحروسة

الناشـــر : **الدار للنشر والتوزيع**

تليفـــون : ٠٠٢ ٠١٠١٤٦٤٧٢١

بريـد إلكترونـى : eddar_press@yahoo.com

www.geocities.com\eddar_press

المـدير العـام : محمـد صـلاح مـراد

رقـم الإيـداع : 2007 / 19704

الترقيم الـدولى : I.S.B.N. : 978-977-6227-08-8

الدار

سِحْر أسود

لا.

لم أشعر برهبة من هذا المكان، أو بخوف من هذا العجوز الجالس على دكته الخشبية الصغيرة فى مدخل البيت القديم، يخيط الأكفان البيضاء بابتسامة ثابتة تجمدت معها ملامح وجهه، ونظرته المقتحمة التى تتردد بين الإبرة والقماش والداخلين والخارجين من البيت. يتفحصهم طويلاً . بثبات. كأنه لا يراهم، تقريباً. كأن عينيه ميتتان، أو هكذا يبدو لشخص جديد مثلى هنا. يتفرس فى وجوههم، يزنهم بميزان حسَّاس متفهم، وأياً كان شخص الداخل أو الخارج من البيت رجلاً أم امرأة أم طفلاً، وأية كانت هيئته وحاله ومشيته فإن العجوز غالباً ما تنفرج شفتاه وتلمع عيناه العميقتان الصغيرتان فى ابتسامة ودودة تمنحها تجاعيد وغضون وجهه براءة الخلوّ من الغاية.

أحياناً، أحس ابتسامته الدائمة موجهة فقط لدنياه الخاصة، لإبرته الرفيعة الطويلة، وقماشه البفتة الأبيض الذى لا يُفصّل على هيئة ثوب له ياقة ورقبة وذراعيْن وأساور، وليست على أي حال، كما بدا لى فى البداية، سخرية عميقة

من الأحياء جميعاً.

منذ نحو الساعة التاسعة صباحاً يرابض العجوز فى مكانه المعتاد، فوق الدكة التى يتغير موقعها تبعاً لحركة الشمس، وسقوط أشعتها على وجهه وقماشه ودكته. فى الصباح، فى أيام الخريف هذه، ينصب صبيّه فارع الطول الدكة أمام الحائط الحجرى المتهدم للمنزل المهجور الذى يواجه بيتنا القديم، لتصبح جلسة العجوز فى مواجهة باب دكانه المفتوح تماماً.

صباحًا يستمتع بدفء الأشعة الفضية التى يحب أن يتركها تسقط على رقبته وظهره، لتنير العروق الخضراء البارزة فى رقبته المجعدة القصيرة . وتُظهر جمال جلبابه البنى الداكن. وهو منحنٍ على القماش تنتقل يده الماهرة بسرعة من غرزة إلى أخرى، ويهتز جسده الضئيل بحركة رتيبة تتكرر مع كل شدة للإبرة.

كان يمسك الإبرة الطويلة اللامعة بين إصبعىّ السبابة والإبهام بإتقان وقوة تظهر، لمن يراه وهو يعمل، كإصبع سادس طويل رفيع وصلب فى يمينه المعروقة.

بدخول الظهيرة واستقرار الشمس فى منتصف السماء يتغير موقع الدكة، يحملها الصبى بين يديه ويضعها أقرب ما يكون إلى الباب الحديدى للبيت، وعلى يمين باب الدكان. فى الظل المنبسط تحت بلكونتى تتحول الدكة القصيرة لنحو الساعة إلى سرير صغير يمدد عليه العجوز جسده الضئيل.

ويغفو فى قيلولته اللذيذة. ينام كرضيع بعد دقائق قليلة من استلقائه على الدكة، ولا تفارق وجهه ابتسامته، كأنه يداعب ملائكة طيبين، وعذراوات جميلات، ولا يرى فى نومه ما أراه من كوابيس.

أرى قتلة وسفاحين وأمازونيات وعسكر يداهموننى كلما حاولت النوم فى الظهيرة.

بغروب الشمس يُعيد الصبى الدكة إلى موقعها الصباحى. ويعود العجوز يهز جسمه مع خياطة كل غرزة فى الكفن الذى ينتهى من خياطته فى نحو التاسعة مساءً، يطبقه ويحمله بين يديه بحرص، ويقطع المسافة القصيرة بين الدكة وباب الدكان فى خطوات بطيئة مهيبة، كأنه انتهى من صنع إكسير السعادة . يضعه فوق أحد الرفوف الخشبية الكثيرة التى تغطى معظم حيطان الدكان، ويعدل طاقيته البيضاء الصغيرة، وينفض جلبابه استعداداً للمغادرة.

يحل الظلام مبكراً فى الخريف، وهنا أيضاً. يقل عدد المارة فى الشارع، ويَنْدُر الداخلون والخارجون من البيت، وتخفت الأصوات ويختفى العيال الذين يلعبون فى الشارع، فينزل الصبى باب الدكان الصاج بصرير وقرقعة مزعجة نتيجة لصدأ التروس. يتأبط العجوز ذراع صبيه ويمضيان صامتيْن فى خطوات بطيئة إلى ناصية شارع الرشيدى، ثم يسيران باتجاه محطة الأتوبيس فى مواجهة مبنى القصر العينى الفرنساوى.

هذا العجوز لن يترك لى الفرصة للصعود إلى شقتى

بالدور الثانى برفقة امرأة دون أن يثير فى نفسى بعض الشكوك حول رد فعله. كما أن تسريبها، إن حدث ونجحت فى اصطياد إحداهن، سيكون عسيراً أثناء النهار، وهو الوقت الذى أفضل أن تغادر فيه المرأة. على أية حال لم أختبر ذلك بعد. سأجرب.

بعد أسبوعين من سكنى فى هذا البيت صارت ابتسامة العجوز ريحان، التى يواجهنى بها عند دخولى وخروجى ، ابتسامة عارفة ، كأنه فرغ تماماً من الإلمام بالمعلومات الضرورية التى تلزمه لتكوين فكرة عن شخصى الذى اقتحم عليه مجال بصره وخبرته اليومى. شخص جديد، ساكن جديد فى مثل هذا الحىّ يعنى أن يلتفت السكان القدامى إلى هيئته، سنه، حالته الاجتماعية، سلوكه اليومى، أوقات دخوله وخروجه، عاداته، ما يحمل بين يديه من طعام أو أكياس أو حقائب، الذين يزورونه إن وجدوا.. فما بالى بريحان هذا. ريحان الذى بنى أساس وجوده هنا على المراقبة والملاحظة الدقيقة للآخرين. مراقبة تبدو فى ظاهرها لامبالاة كاملة، خاصة وهو متفرغ لإرهاف حاسة بصره التى تبدو فى حالة جيدة على الرغم من تقدمه فى العمر. ربما يكمن السبب فى استغنائه شبه التام عن استخدام الكلمات مع سكان الحىّ أو صبيه أو حتى الزبائن. زبائنه يأتون إليه عادةً فى شكل جماعة صامتة حزينة لا تعبر بالكلمات عمّا تريد، وهو ليس فى حاجة لأن يسمع أصواتهم ليعرف ماذا يريدون. إنه يعرف بمجرد النظر إلى الآخرين ماذا يريدون منه، وهو سيفعل كل شىء على أتم وجه دون حاجة إلى تبادل كلمات من أى نوع.

اعتاد سكان الحىّ وجود ريحان منذ سنوات طويلة. قليل منهم يتجنبون المرور أمام دكانه حتى لا يلقون عليه نظرة وهو جالس على دكته، ويهربون من نظرته إليهم وابتسامته الدائمة، وحتى لا يشمون رائحة دكانه العتيقة العميقة. رائحة نفّاذة كانت دائماً مميزة لهذا الشارع الضيق، الذى لا يحمل اسماً وليس له يافطة معلقة على أول بيت فيه كما هو حال بقية شوارع المنيرة. كان الاسم المتداول بين ساكنيه وفى الحىّ هو شارع "الحانوتي". يتداوله الناس كاسم عادى محايد ودال على شارع ذى رائحة خاصة . تبدأ خفيفة غير منفرة مختلطة بروائح اللحوم والأسماك والخضراوات فى سوق شارع الموارد، وتتصاعد حدتها وثقلها لمسافة ثلاثمائة متر، هى طول الشارع، لتصبح رائحة نقية خالصة حاضرة وحدها أمام دكان ريحان الذى لا يفصله عن تقاطع شارع الرشيدى سوى بيتيْن .

أما أغلبية قاطنى المكان فقد ألفوا الرائحة الراسخة رسوخ ريحان فوق دكته وهو يخيط الأكفان، يمرون عليه، أمامه كأنهم لا يرونه، كأنه حجر فى الحائط المتهدم الذى يركن إليه ظهره. الأطفال والصبية لا يبالون، يحولون المساحة الصغيرة أمام الدكان إلى ملعب كرة، يصنعون مرمييْن بأحجار صغيرة ويرمحون خلف الكرة، يظيّطون ويلعبون ويتشاجرون فى فترة قيلولة ريحان، أحياناً يلعب معهم صبيه.

على الرغم من أننى لم أتبادل معه كلمة واحدة خلال هذين الأسبوعين . حتى للتحية، فقد تولدت بيننا علاقة مختلفة عن علاقته بقاطنى الحىّ القدامى، فلا أنا أنفر من

وجوده وأتجنبه وأغض بصرى عندما أراه ينظر إلىّ، ولا أنا مسلم به وبوجوده هنا مثل بقال أو جزار أو خضرى أو أتعامل معه بلامبالاة صريحة كأطفال الشارع. منذ سنوات طويلة لم يسكن شخص جديد هنا، خاصة فى الشقة الصغيرة فوق دكان ريحان مباشرة. لعله سعيد، الآن، بأن الشخص الذى كان يتمنى مجيئه قد جاء أخيراً ليبادله لذة مراقبة شخص آخر، تتكشف حياته أمامه رويداً رويداً، ومع كل اكتشاف جديد يخفق قلب العجوز ببهجة تُضىء وجهه المدوّر الجميل الذى كان، يوماً ما، وجهاً شاباً جذاباً للغاية.

كنتُ على استعداد تام لإرواء نزق ريحان وشهوته الجامحة للاستطلاع، ومشاركته أسرارى الشخصية التى كنت فى حاجة ماسة لفضحها أمام شخص عجوز حكيم مثله، يتعامل يومياً مع الأجساد الناضجة المكتملة، التى تغادر الحياة وقد تخلصت من مأزقها. إنه يرى الناس في لحظة نضوجهم الأقصى الذى ليس بعده شىء.

تطورت علاقتى بريحان خلال الخمسة عشر يوماً الماضية بسبب حواراتنا الصامتة التى نتبادلها بنظرات سريعة يقتحم بها كلانا الآخر، فى لحظات خاطفة تتكرر تقريباً على نفس الصورة. أنا أدخل إلى البيت أو أخرج منه. أتريث قليلاً أمام الباب الحديدى، على ظهرى حقيبتى الجلدية الصغيرة، وهو جالس على دكته فى مواجهتى يعمل فى نشاطه الرتيب. في البداية كان يرمقنى بنظرة سريعة دون أن يرفع رأسه عن القماش والإبرة، كأنه لا يرانى، ثم صارت يده تتوقف عن غرس

الإبرة في القماش الأبيض للحظات ليرفع وجهه إليّ ويهز رقبته بإيماءة ترحيب . ثم صرت أبادله الابتسام وأرفع يدى اليمنى بتحية متعجلة.

يوماً وراء يوم تعمقت بيننا ألفة وتناغم وارتباط غامض مبهم. لم أعد مهتماً بتجريب اصطياد امرأة لمعرفة رد فعله، ولا بمدى ما يعرفه عنى. حتى إننى أصبحت أشم رائحته المميزة من على بعد مئات الأمتار.

وأنا أسير على كورنيش النيل فى "جاردن سيتى" أظل أشمشم بأنفى طيلة مشيى بخطواتى المتسكعة البطيئة مثل كلب يبحث عن رفيقه. وكلما اقتربتُ وقصرت المسافة بينى وبين دكانه ودكته صارت الرائحة العتيقة ثقيلة، نفاذة وقوية. لحظتها أعرف أنه مستقر فى مكانه. لا يزال حياً. يخيط الأكفان بلا رتابة أو إحساس بالملل.

1

كالعادة الجديدة ابنة الإسبوعين أدخل الشقة لأجد نفسى فى عتمة الصالة الضيقة. تتغير الرائحة النفاذة القوية إلى رائحة مكتومة قديمة. رائحة هواء راكد عشش فى أثاث عتيق. علق بهذه الشقة منذ ماتت صاحبتها قبل سبع سنوات. أخبرنى زوج ابنتها محروس، الذى طلب ٣٥٠ جنيهاً شهرياً لاستئجارها وفقاً لقانون الإيجار الجديد. أن أحداً لم تطأ قدمه هذا المكان منذ ماتت حماته.

" كانت ست بعشر رجالة. السوق كله يعمل لها ألف حساب".

وضحك ضحكة طويلة لحشّاش قديم :

" حتى فى موتها كانت بعشر رجالة. قعدت تموت عشر سنين.. أوصى على الكفن وفتح القبر وصوان العزا والفقى بالليل.. وهى تصحى وتسبقنى على الدكان قبل الفجر ما

يطلع. عشر مرات يا محترم لحد ما قلت الست دى مش باين لها موت!"

وتوقف عن الكلام ليقهقه بشخير ويضرب ناصيته بكف يده:

"حتى عم ريحان زهقته فى عشته. كفّرته وكانت هتطلع روحه.. كل مرة يقرب منها وهى قاطعة النفس ممددة زى الشوال على السرير. ويقول لها مع السلامة يا نعيمة.. تفز قايمة فـ السرير. وتقول له مع السلامة انت يا اخويه. أغسّلك بإيديه وأوصلك القبر وأنا اجري وراك يا عنيّه".

" اللّه يرحمها ".

أدار الخاتم الذهب الكبير فى بنصر يده اليسرى :

" عشان عشرتها الحلوة بس. أنا باقى على بنتها ".

كان يرتدى جلباباً أنيقاً مكوياً بعناية بالغة. وحذاءً إيطالياً لامعاً. وساعة فاخرة في معصمه. وسيارته الكبيرة تنتظره أمام البيت. خمنتُ أن معلمته الراحلة لم تكن مجرد بيّاعة خضار في سوق الموازدى . وأنه كان صبيها "المتودك" الذى ورث عنها محل الخضار الكبير وهذا البيت. وعمارة في شارع القصر العينى وأسرار تجارتها السرية.

" تصدق باللى خلقك. أنا ورد عليَّ أصناف من النسوان ما تتخيلهاش . من جاردن سيتى والزمالك والمعادى.. إنما أعمل إيه فى وفائى للمرحومة؟!"

بدا لى أنه استطاع أن يُحدث تغييراً جذرياً فى تجارة المرحومة. فتحول عن الأصناف الشعبية ومزاج أولاد البلد الذين بسببهم للانقراض. إلى الأصناف الخفيفة الفاخرة التى يُفضلها شباب وفتيات الأحياء الراقية. لكنه لم يستطع أن يغيّر مزاجه فى النسوان. فظل مخلصاً للبلدى.

كانت الحجرة الكبرى فى الشقة والتى خصصتها للنوم والمطالعة ونشاطات أخرى ذات شرفة عريضة تطل على الشارع وأطلال منزل كبير قديم سقط سقفه داخله. وبقيت حيطانه الحجرية الصفراء المسودة عالية منتصبة فى الفراغ. وبقى بابه الخشبي الضخم مغلقاً بقفل نحاسى كبير. قصر أحد باشاوات الأربعينات. تاجر كبير. ربما.. على الأقل ما زالت أمامه شجرة داليا ضخمة كثيرة الغصون. لها زهور حمراء متفتحة فى هذا الخريف.

جنب الحيط المشتركة بينى وبين شقة جيرانى سرير خشبى عتيق يحتل معظم مساحة الحجرة. وتحت الشرفة مكتب صغير بدرجين. وكرسيان من المعدن والجلد الأسود. الغرفة الأخرى صغيرة لها بلكونة ضيقة تنتصب فوق دكان ريحان مباشرة. دكان ريحان صغير صغر مساحة هذه الغرفة. يزيد من الإحساس بضيقة ومحدوديته رفوفه الخشبية التى تغطى معظم حيطان الدكان. فوقها أكوام من القماش وشلات الخيط وبعض الزجاجات الصغيرة.

كان لابد من القضاء على كلاحة الحيطان التى حال لونها وتكومت فوقها بقع كبيرة متناثرة من فضلات الفئران

والناموس والذباب. اشتريت جالونيْن من البلاستيك الأبيض وفرشاة دهانات واستأجرت سلماً خشبياً مزدوجاً من بائع بويات فى شارع الرشيدى. ولثلاث ليالٍ متتالية كنت أبدأ العمل فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وأنتهى في نحو الثامنة صباحاً . أدهن الحيطان والأسقف والأبواب والشبابيك باللون الأبيض. الأبيض فقط. أستدعى بعض خبرات صباىّ فى العمل كصبى نقاش. كان جارنا في حىّ السيدة زينب. أصبحت أتعب بسرعة من الصعود والهبوط على السلم وأملّ ضرباتى ويسقط بعض البلاستيك على البلاط. لم أكن خائباً هكذا.. كنت ماهراً بشهادة الأسطى عادل. نقاش عفريت فى الثانية عشرة من عمره. رغم تخدل ذراعى وتعب جسمى كان قلبى يقفز فى صدرى كلما نظرت إلى حيط فلا أتعرف فيها على الحيط القذرة الأولى.

لم تكن النتيجة النهائية سيئة جداً. أصبحت الشقة ذات أسقف وحوائط وأبواب بيضاء نظيفة. وإن لم تكن مصقولة أو ناعمة. ابتسمتُ لنفسى وأخذت أدندن بلحن راقص. خرجت إلى البلكونة. كان ريحان يبدو صبياً صغيراً محنى الظهر، ساقط الكتفين وهو يتأبط ذراع مساعده فارع الطول. طاقيته البيضاء معلقة فى الهواء ككتلة نور صغيرة تمشى فى ظلمة الشارع. كانت خطواته قصيرة ورفيقه لا يرحمه. يسحبه بخطواته الرشيقة الواسعة إلى زحام وضوضاء شارع الرشيدى.

لا أعرف أين يعيش ريحان. لم أهتم.

بعد الثانية عشرة مساءً يعود جمعة . جارى فى الشقة المقابلة. يصعد السلالم الحجرية للبيت بخطوات بطيئة ثقيلة. أسمع وقعها الخافت المكتوم. كأنه لا يطيق حمل ثقل جسمه السمين القصير. له رأس كبير يلتصق مباشرة بجسده حيث غابت الرقبة تحت طبقات الدهن وصارت لغداً مترهلاً.

يماثلنى فى العمر تقريباً. ولكنه يبدو أكبر من عمره بنحو عشر سنوات بصلعته المدورة الصغيرة. والتجاعيد العميقة حول فمه وتحت عينيه الجاحظتين. منذ اصطدم بى على السلم أثناء صعوده ونزولى وهو يخفى ذعره منى بتقطيبة عميقة يرسمها على ناصيته العريضة كلما صادفنى. فأغيظه بافتعال ابتسامة عريضة وتمتمة مبهمة أعرف أنها ستثير حنقه.

تبدأ أصوات المشاجرة الليلية المعتادة تنبعث من خلف الحيط المشتركة بيننا. أميز فيها أصوات العوانس الثلاث. كما يسميهن جمعة. الأخت الكبرى ماجدة تمتاز بصراخ حاد متصل مثل سرينة عربة الإسعاف. ينطلق حين يقفز جمعة لتطول يده وجهها. يضربها كل ليلة لأسباب مختلفة.

الليلة يضربها بغضب أكثر من المعتاد قليلاً. لأنها تمايصت فى سوق الخضار مع المعلم عضمة الجزار حتى لا يدس الشغت فى كيلو اللحم الكندوز. ووقفت على ناصية شارع الموردى ساعتين ترغى. بدون مناسبة. مع طالب في كلية الطب كان يسألها عن دكان ريحان.

الأختان الأخريان تنهنهان وتستجديان. بصوت خافت مكسور، وتتوسلان لجمعة أن يكف عن ضرب أختيهما. يتعب جمعة بسرعة من ضرب البنت الطويلة الفارعة، وأخيراً تنتهى المشاجرة بجمعة يسب بنات الوسخة القحبات.

يدوم الصمت دقائق معدودة، بعدها يرتفع فجأة صوت الكاسيت بأغنية شعبية راقصة، وأسمع أصوات الضحكات الرنانة والخطوات الرشيقة والتصفيق والغناء. لا أعرف من الذى يرقص ومن يشجع. ربما ترقص البنات وحدهن، يرقص جمعة معهن أم يدخل لينام وحده كالقتيل. لا أعرف.

يدخل الليل ساعاته الأخيرة فأبدأ نشاطى الجسمى المحموم. أتجول بين الغرفتين، ومن المطبخ إلى الصالة. أعد أربعة أكواب شاى متتالية. أقلب فى ألبومات صورى الفوتوغرافية، وكتالوجات الفنانين التشكيليين. أملأ البيت بالموسيقى الكلاسيكية. أخرج إلى البلكونة أرقب الشارع الهادىء الصامت، وأعود أستلقى على السرير وأحملق فى السقف محاولاً التغلب على أرقى الليلى المزمن حتى أنام مع تباشير الصبح.

2

" شوف حد تانى ".

" ما حدش غيرك هيطلع معايا.. نهارك أبيض ".

نبرة صوته حاسمة يشوبها عشم حديث الأصدقاء الحميمين.

لوَّح بيده وطوحها بعيداً عن جسمه بحركته الشهيرة. لينهى المناقشة التى تورطت فيها وأنا نصف نائم. فاتخذ من صمتى واسترخائى فى مكانى على الكرسى الجلدى العميق الذى غاص فيه نصف جسدى. دلالة على إذعانى.

ليس لى مزاج للعمل اليوم. جئتُ لأعتذر وأدبر لهم مصوراً آخر وأعود للبيت. يمكن لأى زميل أن يحل محلى فى هذا "الأوردر". وما أكثر من يرغبون في زيادة عملهم.

ما زاد الأمر سوءاً. بالنسبة لى. هو وجود هذه المذيعة التى

تصر فى أغلب الأوقات على الظهور "بروفيل" طيلة التسجيل.. من الزاوية اليمنى فقط حتى لا تظهر الوحمة السوداء الناتئة على يسار أنفها الدقيق. حاولت إقناعها مراراً. وأنا أكذب بطريقة سيئة للغاية. بأن "الفيس" رائع. وبأن وجهها عند التقاطه من المواجهة مدوّر ونضر وجميل. وهذا "الكادر" هو أفضل حالاتها على الإطلاق على الشاشة. وبأننى سأتكفل بإخفاء الحسنة الجميلة. ولأؤكد لها كذبتى التى جعلتها تفشخ فمها على آخره. أريتها صورتها على" المونيتور" الصغير الذى يلازمنا عند التصوير. جاءت النتيجة مفزعة. بدا وجهها عند التقاطه من المواجهة عبارة عن مسخ شائه لوجه حيوان برى أتى لتوه من عمق غابة إفريقية. كتمت ضحكاتى فى صدرى. زمت شفتىّ بقوة وصرخت هى "آيه الأرف ده؟!" . وبدأ نعمان يتصنع الغضب فسبنى على مرأى ومسمع من الجميع. ليبدأ استعراضه المعتاد. استعراض السلطات فى بداية الأوردر لإرهاب الجميع. الفنيين على وجه خاص الذين يصعب السيطرة عليهم دون توبيخى أنا .كما يفكر نعمان.

تحركت سيارتنا لتنقلنا إلى قاعة المؤتمرات الكبرى. مضى الوقت بطيئاً بين استرضاءات ومداعبات نعمان للوسى ذات البروفيل السيىء والفيس الأكثر سوءاً. ومشاغبات الفنيين و"إفهاتهم" الهامسة التى تتخذ من نعمان مركزاً لها.

كنت أتتبع المسيرة المنتظمة للنمل فى رأسى. يسير فى طابور طويل فى خطوط متعرجة مرسومة بدقة. تحددها الحناءات ولفات وانبعاجات مخى اللدن. فتحت النافذة إلى

جوارى وأعطيت وجهى للهواء وعينىّ للشوارع المزدحمة التى نجتازها ببطء. أفكر فى أننى لم أنم نوماً عميقاً منذ آخر مرة ذهبت فيها إلى سمرة فى الهرم. لم أجد غيرها فنمت معها. كانت قصيرة وأسنانها متعوجة ورائحة جسدها زنخة. لكننى نمت نوماً عميقاً بعد أن ضاجعتها. أنا بحاجة إلى امرأة. أية امرأة . أضاجعها أربع ساعات متصلة. بعدها أنام لا تأتينى الكوابيس التى تجعلنى أصحو لاهثاً عرقاناً كأننى كنت أخوض مباراة مصارعة مع شخص ضخم جبار. ولا أرى الأحلام السعيدة. أحتاج إلى نوم صافٍ رائق بلا صور. أحس فيه جسمى خفيفاً. ينساب بلطف فى ضوء أبيض شفاف أمام عينىّ المغلقتيْن.

الضوء والظلمة قانون حياتى التى ارتبطت بهذه الآلة الغريبة.

أول مرة أمسكت فيها بكاميرا بين يدىّ كنت فى نحو الرابعة عشرة من عمرى. جاءنى بها أبى كهدية لنجاحى الباهر. الذى لم يكن يتوقعه. فى الشهادة الإعدادية. أحببت جسدها الأسود الخشن الذى كنت شغوفاً بملمسه بين كفىّ. وعدستها الواسعة البارزة الكبيرة. كانت أجمل الأوقات التى توفرها لى هى تلك الساعات الطويلة التى أضع فيها عينى اليسرى خلف عدستها وأغمض الأخرى. وهى بين يدىّ أتشبث بها ككنز أخشى أن يسلبنى إياه أحدهم. أسير فى الشوارع كأعمى وُهِب عيناً زجاجية ردت إليه البصر. أرى وجوه الناس والشوارع والبيوت والأشجار والصبايا والمقاهى والأسواق. وقد تغيرت

تماماً عمّا كنت أراها بعينىّ رأسى. صارت أجمل. أرحب. نظيفة. ساطعة. محددة. يمكن الإمساك بها. تثبيتها والقبض عليها بيدى. امتلاكها لا رؤيتها وتأملها. أصبحت الأشياء ملكى عندما امتلكت هذه الكاميرا "الياشكا" الصغيرة وأنا على أعتاب المراهقة. حتى أبى الذى أصررت على أن ألتقط له أول صورة فى حياتى كان يبدو لى من خلف العدسة بلا بثور فى خديه. ولا تجاعيد عميقة على ناصية وجهه المستطيل الكبير. وشعره الرمادى الذى كان نصفه أبيض على الأقل صار أسود فاحماً. كان وقد ابتسم ابتسامة خفيفة وبدا كأنه ينظر إلى داخل نفسه .ولا يرانى أمامه يشبه نجوم السينما ورجال السياسة والرجال المهمين الذين يظهرون فى التليفزيون. عندما طبعت الصورة عند عم شيكو أخذها من يدى. تأملها طويلاً ثم قام من مكانه وأخذنى فى حضنه ومسح على شعرى وقال:

" هتبقى فنان يا ناصر".

وصلنا متأخرين . كالعادة. كانت القاعة واسعة جداً. فخمة. وثيرة. تسع الآلاف. حوائطها العالية مبطنة بعوازل صوت مثل صالة سينما على آخر طراز. ولها قبة ضخمة يزيّن سطحها الداخلى نقوش وخطوط وأشكال عربية ورسوم ومنمنمات فارسية وأشكال هندسية وتجريدات غربية فى بهرجة فاحشة وعجنة غريبة. وعلى الرغم من رداءة الفن فى التصميم والتنفيذ. والألوان الساخنة اللامعة إلا أن الفخامة والثراء والأبهة المنوط بها إحداثها عند النظر إليها تتم

بسهولة ويسر. حتى إن من يدخل هنا للمرة الأولى سيفتح فمه ويستشعر كم هو قزم ضئيل وتافه. سيجلس على أحد الكراسى القطيفة التى تغوص بصاحبها مبهوتاً ساكتاً.

اختار نعمان زاوية تصوير ميتة بالنسبة لى. كادر متوسط يُظهرالجميع، وأنصاف أجسامهم العليا ملتصقة بالخلفية. كادر مسطح بلا عمق ومختلط الألوان. والإضاءة التى وضعتها وحاولت بها إضفاء بعض العلاقات بين كتل الأشخاص والمكان. صارت، من هذه الزاوية، أشبه بإضاءة ملهى ليلى تحتفى بالراقصة النجمة.

ولأننى أعرف حمق نعمان لم أناقشه. كنت أريد إنهاء عملى بأية طريقة كانت لأخرج من هذا المكان القبيح الذى يحض داخله على الرضوخ له. منذ دربت نفسى على الاحتفاظ بأفكارى وقناعاتى الخاصة خارج ما أقوم به من عمل لحساب الآخرين ووضعت إمكانياتى الإبداعية فى صندوق أسود داخل صدرى صرت أكثر المصورين شهرة فى صنع ما يريده المخرج. ما يريده تماماً بدقة وإحكام بالغ مهما كانت عيوبه الفنية وبلاهته وتفاهته.

أنا أصنع فقط ما يريدون.

كانت القاعة الكبيرة مزدحمة برجال متأنقين. لامعى الشعر. يرتدون سترات سوداء وكحلية وكرافتات مزركشة. حمراء وزرقاء وصفراء. يجلسون فى مقاعدهم هادئين جادين منصتين. ونساء وقورات متزنات فى تيّراتهن المحترمة. وعلى

المنصة الكبيرة التى تحتل صدارة المشهد يجلس خمسة أشخاص. ثلاثة رجال عجائز متوردى الوجوه. أصغرهم فى نحو الستين. وامرأتان جميلتان فى أواسط العقد الرابع. كانوا يتناوبون الحديث الواحد بعد الآخر. حول مستقبل مصر فى الألفية الثالثة.

وأنا أدور بالكاميرا. وهى فوق كتفى. على الجالسين فى الصالة لرصد انطباعاتهم وتسجيل إيماءاتهم وتصفيقهم. وانفعالاتهم وصمتهم لحتها. رأيتها وتوقفت عندها أفحص وجهها بعينى الآلية. كان لها عينان واسعتان ذكيتان تحت نظارة طبية لطيفة. ووجه منحوت بغمازتين غائرتين. وشفتان مكتنزتان . السفلى ممتلئة والعليا أرق. وجهها كله يغلّفه ابتسامة ساخرة ضجرة. كانت تستمع إلى حديث المرأة الجالسة خلف المنصة بلا مبالاة. لم تنتبه إلىّ. لم ترنى وأنا على بعد متر واحد من وجهها.

لم أعرف حينها لماذا توقفت بكاميرتى طويلاً عند هذه المرأة. وهذا الوجه الذى بدا لى لحظتها وجهاً عادياً لا يثير الاهتمام. لكنزنى نعمان بكوعه فى بطنى احتجاجاً على استغراقى فى التقاط هذا الكادر.

حينما تتلاحق الصور. تتسلسل فوق شاشة المونيتور الصغيرة تصبح شيئاً آخر غير الذى رأيته بعينىّ. عينى رأسى الواسعتين الكبيرتين. العينان اللتان استغنيت عن النظر بهما منذ سنوات طويلة. وركبت مكانيهما عدسة واحدة زجاجية. واسعة ودقيقة . تضع على الواقع غلالة رقيقة شفافة. تجعل

الألوان الكابية الكالحة ألواناً ساطعة مبهجة وتجعل المشهد مكثفاً موجزاً مقطوعاً من الحياة. شريحة دقيقة واضحة التفاصيل. لا تغفل شيئاً. لا تعدم تفصيلة أو لون أو حركة.. عدسة تمنح مشاهدها معاندة حقيقية لصيرورة الزمن وتقتطع لحظة واحدة فريدة كانت مطمورة وضائعة وسط السيلان الأزلى الأبدى.

كان المتحدثون قد وصلوا إلى الجدال والسفسطة والشجار البارد المفتعل. وأصبحوا يدفعون الرتابة والملل بترديد بعض العبارات العدوانية التى تسفه آراء مخالفيهم وأعدائهم الفكريين المفترضين. رغم حرصهم البالغ على استبعاد وعدم دعوة أولئك الأشخاص الذين بقدرتهم أن يكونوا أعداءً حقيقيين وطبيعيين. لابد من التظاهر هنا بأنه ثمة آراء مختلفة ومتعارضة. لابد من وجود المعارضة والآراء الأخرى. " نحن ديمقراطيون بما يكفى لأن تتسع صدورنا لمن يخالفوننا الرأى. ونحن سعداء بوجود هذا الثراء الفكرى فى مؤتمرنا ". هكذا قال أحد الشيوخ الثلاثة بنبرة خطابية زاعقة وابتسامة عريضة. وهو يعنى العكس تماماً.

كنت أنظر إلي هؤلاء المتحدثين المهذبين المحترمين فى شاشة المونيتور الصغيرة أمامى. فأراهم بنى آدميين آخرين غير هؤلاء. مخلوقات أخرى غير تلك التى أراها بعينىّ رأسى. بشحمهم ولحمهم وستراتهم الأنيقة وألسنتهم الطويلة يزعقون ويخطبون من خلف منصتهم الفخمة ووجوههم فقط هى الظاهرة والمرئية.وجوههم وجوه ممثلين محترفين

يجيدون إخفاء أنفسهم ببراعة ومهارة منقطعة النظير بينما تختفى أجزاء أجسامهم السفلى خلف خشبة المنصة. كانوا لا يرتدون ملابس داخلية تستر أعضاء أجسامهم وعوراتهم المسترخية. كنت أرى أفخاذهم السمينة مترهلة وشاحبة تكسوها التجاعيد والعروق الزرقاء النافرة. والدوالى المنتفخة. وأعضاءهم المنذورة للإثمار منكمشة نائمة رخوة. مجدبة مثل بركة صغيرة آسنة سوداء. خرجت قهقهتى عالية صاخبة. لم أستطع السيطرة على مخيلتى وعلى ضحكى المتواصل الذى بدا نابياً وغريباً. فتوقفت السيدة. التى كانت تتحدث بحرقة عن المستقبل النسوى المأمول. عن الكلام وران صمت ثقيل فى القاعة التى رددت حيطانها صدى ضحكى الهستيرى.. حاولت التماسك . زم شفتىّ بقوة. شل حركة جسمى الذى راح يهتز مكانه. التفت الجميع إلىّ. وتسلطت العيون كلها على جسدى المفكوك المنهار الذى ما كان بإمكانى السيطرة على حركته وضحكه وعبثه. فتصنعت الاستمرار فى التصوير. وخبأت رأسى منهم خلف الكاميرا محتمياً بها وبحاملها.

3

الليلة رأيتها للمرة الثانية. رأيتها بعينىّ رأسى بدون كاميرا. لم أكن أعمل. كنت مدعواً للفرجة والشُرب والفرفشة والرقص. ومشاركة نعمان وكلوديا فرحة تدشين علاقتهما الجديدة. وجهها عادى مثل أى وجه أراه فى الشارع ولا أتوقف عنده. أعبره كأنه لم يوجد أبداً. لكنى حملقت فيها. فى وجهها ونصف جسمها الظاهر لى وذراعيها ويديها. كنت أبحث عما جعل كاميرتى تتوقف عندها طويلاً. في ذلك اليوم حين كنا نسجل مؤتمر الألفية الثالثة. لكزنى نعمان بكوعه فى بطنى. يومها لم أشعر بألم .كنت مشغولاً بذهولى. باستغراقى فى تأمل تفاصيل الوجه.

الليلة أستطيع أن أراها لوقت أطول. من مكانى بين نعمان وكلوديا كنت أراقبها. وهما منهمكان فى حديث عن قدماء المصريين. كان أبرز ما فى وجهها أنف مستقيم رقيق ينحدر ببساطة ورشاقة من أسفل مفرق العينين إلى أعلى شفتها العليا. شفة وردية ممتلئة قليلاً. الشفة السفلى

مكتنزة قاتمة الحمرة. فمها بارز كبير إلى حد ما.لكنه جذاب فى كل الأحوال. عندما تتكلم أو تسكت أو تمتعض وهى تقلب شفتها السفلى. خلعت نظارتها الطبية وراحت تلعب بها بين يديها وتضعها فى جانب فمها. فبدت ملولة لا تستسيغ جلسة مرافقيها. رفعت وجهها لأعلى ثم نحو حلقة الراقصين والراقصات فبان لى ما لم أدرك كنهه فى المرة الأولى. كانت عيناها السوداوان الواسعتان اللامعتان ببريق خافت. هما كل ما تملك هذه المرأة من قوة جذب ونفور. تعلق واحتماء. غدر وسخرية وولع. عجينة ملتبسة من الضعف والشره والإغواء. أشحت ببصرى بعيداً عن عينيها اللتين لم تريانى هذه المرة أيضاً.

كانت صاخبة الحركات فى جلستها بين رجلين فى نحو الأربعين وامرأتين مألوفتين لى. أراهما أحياناً فى المطعم السويسرى. ووسط البلد والنادى اليونانى. هى كانت تتململ تشرد بعيداً عنهم. تتصنع الإنصات إلى حديثهم وتجرع كأسها وتهز رأسها. تطالع الراقصين بنظرات استكشافية سريعة كأنها ترسم منظراً عاماً للجميع يخصها وحدها.

كان النادى اليونانى العتيق مزدحماً وصاخباً. قنبلة انفجرت بالموسيقى والحركة والكلام. فالليلة ليلة ختام المهرجان الموسيقى الذى يقيمه فلول الأجانب الباقين فى مصر من يونان وفرنسيين وإيطاليين والعاملين بالسفارات الأوروبية. وكانت الفرقة البرازيلية التى تحيى الليلة تعزف ألحانها الصاخبة باستغراق تام فيها. غائبة عن وجود الخليط

العجيب. الجمهور العالمى الذى وحّده الشغف بالغناء والرقص والشراب. كانوا خمسة شباب تلمع وجوههم البرونزية تحت الأضواء المسلطة عليهم. شعورهم طويلة مسدلة على ظهورهم، مجعدة وهائشة. وصدورهم وأكتافهم عارية. عضلاتهم المفتولة القوية بارزة كلاعبى كمال الأجسام. أربعة منهم يحتضنون جيتاراتهم على صدورهم وخامسهم يجلس بين الطبول وآلات الإيقاع التى يتنقل بينها برشاقة وسرعة. كانوا يعزفون لأنفسهم. لبهجتهم الخاصة واحتفاءً بالمرأة. مغنية الفرقة ضخمة الجسد خفيفة الحركة والدم. تناغش عازفيها وتلاطفهم. تلاعبهم بانتقالاتها الحادة المفاجئة من مقطع فى أغنية إلى مقطع آخر فى أغنية مختلفة. تتوقف فجأة لتضحك ضحكة ماجنة هائلة كأنها تذكرت شيئاً يغضب عازفيها ثم تبدأ أغنية جديدة. وحين ينهمكون في متابعة اللحن الجديد يجدونها قد شطحت بعيداً وانطلق صوتها القوى بمطلع أغنية أخرى لم يعتادوها منها. فيضجون صائحين متوقفين عن العزف. فتضحك بخلاعة أكبر وسط صياح الجمهور المنتعش. وتشير بيدها لتوهمهم بأنها ستلتزم باللحن الجديد وما إن تشرع فى الغناء حتى تعود إلى اللعب بالجميع.. هكذا راحت تسقيهم وتسقينا الجاز والروك أند رول والسامبا والبوب وهى تلعب بعازفيها وبجمهورها حتى ضج الراقصون والراقصات. المراهقون والشباب والكهول والعجائز. البيض والصفر والسود والسمر.

ضجت الأجساد الخفيفة والثقيلة ومتوسطة الوزن وتحركت وابتدعت رقصات وتمايلات واهتزازات عشوائية تحاول

اللحاق بارتفاعات وانخفاضات وانتقالات السلم الموسيقى البرازيلى العجيب الخاص بالمطربة المشاكسة. كانوا يبادلون العازفين والمغنية التحيات الحارة بالصفير والتصفيق والرقص والضحك. مثل حيوانات برية أطلقوا سراحها من سجنها للتو كانوا يرقصون ويعربدون . كانوا سعداء حقاً حين عبرت الفرقة عن امتنانها لتجاوبهم الرائع بإعادة عزف أكثر المقطوعات صخباً . الوحيدة التى كانت حركة جسدها الكبير رشيقة متناغمة كأنها كتلة من النغم الصافى .كانت هى. هذه المطربة الممتلئة السمراء ذات الصدر الكبير والشفاه الشهوانية.

كنت أحرك جسدى وأنا جالس مكانى محاولاً أن أصير جزءاً من حشد الأجساد الصاخبة الفرحة. بدأت سحب الويسكى البيضاء الصغيرة تظهر فى دماغى. شربت ثلاثة كئوس من زجاجة كلوديا فظهرت علىّ أعراض الجرأة القديمة. حين أريد امرأة أحس جسدى مشدوداً. متوتراً. يقظاً. منذ زمن طويل لم تداهمنى هذه الأعراض مجتمعة على هذا النحو.

جاء نعمان يترنح ويده ملفوفة حول خصر كلوديا. عرقانيْن ضاحكين سكرانين بالخمر والرقص والموسيقى. انتشلت كلوديا حقيبة يدها من فوق المنضدة بيدٍ مهتزة قليلاً. وقبلت خدى. قال نعمان إنهما سيذهبان الآن. نعم يجب عليهما أن يفعلا الآن. وإلا ما فائدة انفكاك جسديهما هكذا. قلت ذلك فخبط نعمان رأسى بيده واهتز جسمه كبندول. ولم تفهم كلوديا السويسرية التى تدرس اللغة العربية والآثار

الفرعونية.

استرحت لانصرافهما وبقيت وحيداً. صرتُ عيناً كبيرة مسلطة عليها. تحينت الفرصة التى أعرف أنها نادراً ما تتكرر. كانت قد انتحت جانباً وأسندت ظهرها إلى الباب الخشبي الكبير المفتوح الذى يفصل بين صالة الرقص الواسعة وقاعة المطعم، وراحت ترقب الجميع شاردة وغير معنية بهم. رسمتُ على شفتيّ ابتسامة جينتلمان أريب، وفي خطوات واسعة كنت قد أصبحت أمامها، في مواجهتها. رأسى يعلو شعرها الأسود اللامع بحمرة خفيفة. رفعت وجهها لأعلى مباغتة بوجودى، تركتها تحملق في وجهي لحظات وقلتُ بلا مقدمات "آيه رأيك في الرقص ؟ "

دُهشتُ قليلاً. كنت أظن أنها معتادة على مثل هذه الدعوى. هزت كتفيها، وخلعت نظارتها ترمقني بنظرة محيرة غامضة. فنظرتُ في عينيها مباشرة دون أن أطرف. فعلت الشيء نفسه، لم تجفل كما كنتُ أريد واكتسى وجهها بوهج وردى خفيف.كان بيني وبينها شبر واحد فقط، فرأيت صورة وجهي وقد تجسد في بؤبؤىّ عينيها الكبيرتين. أرى نفسي داخلهما وجهاً غريباً ملتاعاً.

سرت في شفتيّ حركة ودغدغت أوصالى كهرباء لطيفة. ماذا حدث لى ؟ قلت لنفسي منذ سنوات طويلة إن أفضل طريقة لفضح الآخر هي أن تنظر في داخله مباشرة، أن تطرق بوابته عبر عينيه ولا تجفل . لا تخافه حتى تراه وتعرفه وتعريه.. سرى هذا لا يعرفه غيرى. لستُ إذن الغبي الوحيد في العالمَ

الذى يؤمن بهذه الخرافة. يبدو أنها خرفانة مثلى تماماً. ما الذى يؤلمني بهذا الشكل ويجعل مزاجي تالفاً هكذا . انكشاف سرى وافتضاحي أم لذة المشاركة المباغتة. امرأة تعرف خرافتي. كأنها تعرفني منذ سنوات طويلة.

صرتُ خائفاً من نفسي ومنها مفتوناً مرعوباً من اللذة العجيبة التى داهمت جسدى كله وأنا متسمر في الأرض أمامها ساكناً أليفاً مستأنساً. لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. كيف أتخلص من لعبتي السخيفة التى أردت أن ألعبها أنا عليها. فإذا بي أنا الملعوب به. الواقف الصامت المنتظر.

4

مازالت أحداث النهار تضغط على رأسى. فوق دماغى خوذة ثقيلة من الحديد تضغط على جانبىّ رأسى وأم دماغى. لم يستطع السُكر والرقص والموسيقى وهذه المرأة المستفزة أن تنفضها عنى. وتحررنى من ثقلها الضاغط. والألم البشع الذى يواصل زحفه على جسدى من رأسى يهبط بخفة حتى يستقر في صدرى. بين عظامى ولحمى يستقر مثل سرطان خبيث خفى.

طيلة رحلة العودة من هذه القرية كنت مركوناً على مقعدى . مستنداً بكتفى على زجاج الشباك. وسيارتنا تسرع نحو القاهرة كأنها تفر من الجحيم . كنت حيواناً صريعاً. جثة. جيفة أسد مقتول من أجل القتل. من أجل لذة الصيد والاقتناص. ولذة تفجير الدم.

منذ سبع سنوات اعتدت بحكم عملى التردد على الريف. قرى الدلتا والصعيد. والقرى البدوية على تخوم الصحراء. أذهب هناك مثل خواجة أبله. أرتدى تى شيرت وبنطلون جينز

مقطوع من فوق الركبة، وأضع على رأسى كاب أبيض. وعلى كتفى تهتز حقيبتى الجلدية الصغيرة. فيها ألواح "الكلك" و"الجيلاتين" وعدسات الكاميرا مختلفة الأبعاد.

شخص غريب عن هذه الأرض. غريب وجاهل ولا ينقصه الغرور والصلف.

كانت عربتنا الكبيرة تسير فى الشارع الترابى الرئيسى فى هذه القرية القابعة وسط الدلتا كمركبة هبطت من الفضاء. تسير ببطء شديد. تتأرجح والسائق ضئيل الجسم يشتم ويسب البلد وناسه، ويبصق من النافذة إلى الأرض بصقات طويلة متتالية. عدا وراءنا الأطفال. بعضهم فى مرايلهم الدمور المدرسية، وشنطهم القماش تتأرجح على صدورهم الضامرة. وآخرون فى جلاليب طويلة تجرجر فى الأرض. كانوا حفاة فرحين، تندفع من عيونهم المشدوهه بهجة رائقة، مصدر انبعاثها هذه العروسة الملونة التى نزلت من السيارة الفضائية. ولأن لوسى كانت ترتدى استيرتش أسود ضيق يُجسّم ردفيها الكبيرين، وبلوزة بيضاء مفتوحة تكشف نصف نهديها النافرين، فقد فرح بها الأطفال كثيراً. حدقوا فيها طويلاً فاغرين أفواههم وتضاحكوا. ضربوا بعضهم بعضاً وتدافعوا نحوها فاضطر السائق إلى هشهم. ووجدها فرصة لاستعراض قاموس شتائمه الوسخة. لم تتحرك النساء اللاتى كن تفترشن عتبات الدور فى جلابيبهن السود للدفاع عن أطفالهن. كن مشغولات بتأمل الجسم الذى ربما يشاهدنه فى التليفزيون. المذيعة ذات الشعر الأصفر الطويل والوجه

الأبيض الذى وهبته البودرة الكثيفة طبقة وردية مشعة.

كان العمدة أكثر الناس إعجاباً بالمذيعة الفاتنة حتى أنه أصر على إهدائها قفص فراخ بلدية، وشخط فى الولد الغفير بأن يضعه فى السيارة. لوسى خلعت عن العمدة طاقيته البنية الصغيرة ووضعتها فوق شعرها كمداعبة، فقهقه واهتز جسمه القصير السمين، وكرشه المنفوخ.

قال العمدة في التصوير:

" إحنا بلد هادية، ناسها طيبين، فى حالهم.. واللى حصل ده ممكن يحصل فى أى ناحية تانية، ماهيش عجبة يعنى! وبعدين النفر الأُجرى ده طول عمره مجنون.. حد عاقل يعمل كده ؟! يقفل باب الدار والشباكين بالطين على مراته وعياله الستة لحد ما يموتوا م الجوع.. ده جنان رسمى، وآنى أشهد بإن عوض ابو حسانين راجل مجنون، مجنون من منشأه لماته.. اللّه يرحم المُرَة والعيال.. آمين يارب ".

اقتربتُ بالكاميرا من وجه العمدة، وعينيه الصغيرتين الضيقتين، فعرفت أنه يكذب. يكذب بصدق ماهر يبدو أنه اعتاد عليه طويلاً.

تقدمت نحوى، دون أن تبالى بنعمان أو لوسى، وهى تقدم رجلاً وتؤخر الأخرى كما يُقال. امرأة نحيلة شاحبة الوجه فى نحو الخمسين، جلبابها الأسود مخروق فى أجزاء عديدة، يظهر تحته جلباب أسود آخر. سلطت علىّ عينيها الواسعتين البديعتين، وكفكفت دموعها بكفىّ يديها. قالت :

"أنا هقولكم الحقيقة يا بيه.. عوض أبو حسانين كانت نفسه عزيزة عليه قوى. كمان محروسة مراته كانت تستلف منى كيلتين القمح بالعافية بعد ما أحلف عليها.. كانت والختمة الشريفة ما يغمض لهاش جفن إلا أما ترجعهم. كان بقالهم ست شهور يا ولداه عايشين على المش والجعضيض والسريس. والعيال كتير تمانية لا شغلة ولا مشغلة. يسرحوا فى الغيطان طول النهار ويرجعوا زى ما راحوا.. والراجل مقهور يا نن عينى. يعمل آيه ؟ أجرى محداهش قيراط فدن.. ومافيش شغل فى بلدنا ولا فى نواحينا كلها.. قعدوا شهرين. كل يوم يكلوا طقة واحدة. فى الآخر عوض جاب شوية طين وتبن وراح قافل باب الدار من جوه. والشباكين.. والناس ماعدتش زى زمان. ماحدش بيعرف آيه اللى بيحصل فى دار جاره. والنبى لولا الريحة فاحت ماحد كان درى بيهم.."

وراحت تبكى فى نشيج طويل مكتوم بلا صوت. فاقتربت من وجهها. "زووم إن". وجهها يملأ الكادر. يملأ الشاشة المحايدة الميتة. يملأ عينى الدميمة. القبيحة التى لا ترى. ولا تعرف. ولا تفعل شيئاً.

أمام الكاميرا علقت لوسى وهى مشمئزة بكل جزء فى جسدها. ووجهها يرتعد. والوحمة السوداء تهتز:

" هذا رجل فقد ضميره وإنسانيته . فقد حتى إحساسه بالأبوة. رجل سفاح قتل أعز الناس إليه. زوجته وأولاده الثمانية الأبرياء.. المؤسف أن العدالة لن تظفر بهذا المجرم لتقتص منه. لأن القاتل الشرير الآثم مات مع ضحاياه الأبرياء.. "

5

أنقـذتنى أخـيراً مـن اللعبـة السـخيفة الـتى جعلـتنى أضحوكـة نفسـى وتكلمت. اعتذرتْ عن الرقص بلطـف. قالـت إنها لا تحب الرقص كثيراً. تريد الخروج إلى الهواء والهدوء بعيداً عن الحفل الصاخب المزدحم الذى لم تعد تطيقه.

خرجنا معاً، متجاوريْن، ببساطة مثل صديقين قديمين.

قلت لها ونحن ننزل الدرجات الرخامية القديمة لعمارة جروبى، إننى رأيتها من قبل، هناك فى مؤتمر الألفية. فابتسمت فى خبث من اكتشف مقاصد معجب غر قديم. وأشارت إلى سيارتها الزرقاء الصغيرة المركونة على الجانب الآخر من ميدان طلعت حرب.

جلستُ فى المقعد الأمامى إلى جوارها، وارتدت هى قناع سائق محترف. كانت تقود صامتة هادئة، هدوء من يعرف طريقه جيداً، فلم أسأل إلى أين تمضى بنا. هدأت سرعتها

قليلا ونحن نجتاز كوبرى قصر النيل، لما رأتنى أخرج رأسى من الشباك إلى جوارى وأتفرج على من بقى من أزواج العشاق. شباب وفتيات صغار السن، جريئون ، يثرثرون ويتطلعون إلى النيل ويعاكسون المارة حتى نحو الثالثة بعد منتصف الليل. كان الهواء بارداً، منعشاً بعد أحد أيام نوفمبر الحارة. ابتسمت لنفسى حين لمحت مراهقاً صغيراً يعانق فتاته بكل جسمه، ويديرها نحوه، فى اتجاه النيل معطيين ظهريهما للسيارات والمارة. كان أجرأ منى كثيراً حين كنت فى مثل عمره، ولكنى فعلت ذلك كثيراً، مع مىّ بالتأكيد، عزة، سوزان ، ربما.. وفى مثل هذا الوقت، وعلى نفس الكوبرى التاريخى الذى يفقد جهامته ورسوخه وهيبته بعد منتصف الليل، حين يصير ملكاً للعشاق والحيارى واليائسين والذين لا مأوى لهم.

كنا نتجول بلا هدف فى شوارع الزمالك الهادئة، بينى وبينها صمت رهيف لا يخدشه سوى وشيش موتور السيارة المستمر.

كانت أنوار باهرة تزيل ظلمة السماء تنبعث من الفنادق الضخمة التى تستقبل بها القاهرة الألفية الجديدة، تظهر لنا مثل نجوم عالية، بعيدة، لا مبالية على الجانب الآخر من النيل، شمالاً وجنوباً وقريباً من مبنى ماسبيرو الرابض كحيوان خرافى قديم يحرس النيل . مبنى يمكن استخدامه كسلم هائل للوصول للسحاب، قالت، وهى تنظر إلى السماء " مافيش ولا نجمة فى السما ".

كنت أركن ظهرى الذى أحسه ثقيلاً وبارداً على زجاج

الشباك بجوارى. وهى بدأت تقبض بتوتر خفيف على مقود السيارة بكلتا يديها. حدست، الآن، وأنا أسلط عينىّ على الارتعاشة الخفيفة، التى لا تكاد تبين ليدها اليمنى، أننا بسبيلنا إلى التواطؤ. تواطؤ مشترك مصنوع من هزة قدمى العصبية التى تنتابنى كلما شعرت بالتوتر، وكلما سألت نفسى عن الخطوة التالية، وتردد نظراتها وارتدادها من وجهى إلى الطريق أمامها، والعكس. ظللنا هكذا دقائق طويلة قبل أن أفكر فى مد يدى إلى شعرها المتموج فوق ناصيتها الدقيقة. لم أجرؤ. زفرت مستاءً من ترددى ولمحت شبح ابتسامة ساخرة صغيرة ترتسم على وجهها.

مازالت تقود ببطء. نسير فى شوارع شبه خالية من الناس تعبرها السيارات القليلة سريعاً دون أن تلتفت لشىء. عن يسارى ينساب النيل الضيق بوقار كغفوة قصيرة أثناء سُكر طويل ممتد، مجذوب غارق فى ظلامه ونشوته واستمتاعه بذاته. وعلى امتداد الشاطىء أشجار ضخمة متقاربة، رمادية فى الضوء الضعيف لأعمدة الإنارة الحديدية القديمة. أشجار عتيقة تتجاوز أعمارها الأربعين عاماً. لكنها مازالت خضراء مورقة، كثيرة الغصون والفروع. أوقفتُ السيارة إلى جوار شجرة كافور لها جذعين. فروعها تلتقى وتتباعد كأنها شجرتين بينهما تشارك حميم وتناقض صارخ، ربما حرب صغيرة. أثارتنى الشجرة وأخرجتنى من فراغى وصحرائى المجدبة التى أشعر بها عميقة فى نفسى. ظننت أن من الملائم تماماً لكى أبدأ معها الفعل أن أتعلل بوجود هذه الشجرة هنا. قلتُ " انتِ زى الشجرة دى ".

لم تجب بشىء.

بدت مشغولة عنى باجترار ذكريات ما. فسكتٌّ غير عابئ بشىء، غير نادم على مبادرتى.

عادت إلى قيادة السيارة، وهى تنفض رأسها بهدوء وبطء، تحرك رقبتها يميناً ويساراً كتمرين رياضى لدفع الدم إلى المخ السكران. فبدأت شهيتها للكلام تنفتح.

أوصلتنى بسيارتها تلك الليلة. أخذت تتحدث طيلة المسافة من الزمالك إلى شارع القصر العينى، وأنا نشوان برنة صوتها، بنعومته ورخاوته، حوافه الدقيقة ووسطه الممتلىء، ورقة أعلاه. لا أذكر تماماً ماذا قالت، شيئاً من قبيل إنها فى حاجة إلى صديق، إنها فقدت معظم أصدقائها فى القاهرة لغيابها الطويل في الخليج العربي.

قالت إنها تعانى الوحدة والفراغ. بلا أحد. تقريباً بلا أحد.

كان وجهها جميلاً جداً. وهى ترمقنى أنزل على ناصية شارع الرشيدى.

سرتُ خفيفاً تلك الليلة، خطواتى سريعة رشيقة، وأنا أبتسم لنفسى وأغنى في ظلمة الشارع وهدوئه وصمته. ريحان أغلق دكانه منذ سبع ساعات. أريد أن أراه الآن ليرى بهجتى الرائقة.لأحدثه. أدردش معه عن أى شىء. أحكى له نكتة أو أدعوه للصعود إلى شقتى لتناول العشاء.

6

" آه . فاتن... طبعاً "

صوتها فى التليفون، فى هذه الظهيرة مبتهج يشي بنوم هادىء، وكنت أحاول طرد الصداع المتجمع فى رأسى من ليلة السُكر والرقص الطويلة الماضية، وأشعل سجائرى الأولى، الواحدة من الأخرى. تكلمت طويلاً عن اليوجا وابنتها وبروجرام اليوم. كنت أرد بترحيب متحفظ وغزل محدود يثنى على الآثار المتوقعة لممارسة اليوجا على استدارة الردفين، ورشاقة الخصر، وألحت إلى عدم استطاعتى رؤيتها اليوم كما كانت تريد. بعدها بنحو ثلاث ساعات اتصلت بى، تليفونياً، مرة أخرى، قالت إنها فى شوارع وسط البلد تتجول وحدها، ليس لديها شىء تفعله. كنتُ أفكر فيها فى تلك اللحظة، وأنا جالس فى السرير أدخن وبين يدىّ كتالوج لأعمال ليوناردو دافنشى، قالت، بإصرار مضحك قليلاً "لازم أشوفك النهارده". اعتذرتُ بسبب العمل المهم الذى لا أستطيع الفرار منه.

لم يكن لدىّ أى عمل.

كنت أفكر فى الإمكانيات المتاحة لصنع علاقة طويلة معها، وأنا أحاول استبعاد الاحتمالات القاسية. السيناريو الذى كنت أعتقد أننى أعرفه مسبقاً، وأعرف أننى قادر على تجاوز الهنّات الميلودرامية فيه، والصدمات الساذجة التى تظهر فى الأفلام السينمائية السخيفة. تخيلت أنها ستظل فى لهفة لرؤيتى، وأنها ستعود إلى البيت، تستلقى فى فراشها وتفكر فىّ، وهو وضع ملائم تماماً لإثارة الشوق..

فى تلك اللحظات التى بدأ فيها تفكيرى وخيالى يتخذ هذا المنحى، أحسست بأننى أصعد منحدراً هاماً فى حياتى، ربما بعدها ينقلب كل شىء، أُختَرق من جميع الجهات، كما يحدث لى دائماً فى مثل هذه العلاقات، أُخترق برمتى من أعلى، ومن أسفل، من الأمام والخلف. كنت قد قررت إيقاف كل هذا منذ ثلاثة أعوام مضت.

منذ تركتنى مَىّ أجتر سنواتى الخمس معها. وها هى ثلاثة أعوام ناجحة بلا امرأة حقيقية. أشياء عابرة فحسب، علاقة جسدية مدفوعة الأجر، مرسومة بدقة، شارى وبائع ويفتح اللّه . خلاص، كفى. أما الآن مع هذه المرأة، فالدعائم الأساسية، الأعمدة نفسها فى خطر، يمكن أن تتقوض، تنهار، وتتركنى صريعاً تحتها. حتى أكثر الأفكار تطرفاً راودتنى فى تلك الأوقات العصيبة التى كنت أفكر فيها فى فاتن. ماذا تريد منى؟ ماذا أريد أنا إذا كنت مهتماً بها على هذا النحو..

أقول لنفسى أنتَ لا تستطيع أن تلعب بمهارة. لست لاعب الأكروبات الماهر الذى يمشى على السلك الرقيق. الذى لا يكاد يُرى. دون أن يقع. هو سلك يفصل بين اللعب والمتعة والعبث وبين التورط والألم والجنون.. وللأسف. الأسف. لا تستطيع أن تصنع علاقات خارجية زائفة بالنساء والرجال فيما يسميه الناس الحب أو الصداقة.. كانت هذه القناعة التى اعتقدتها دوماً عن نفسى تدفع بى إلى حافة غير محتملة. لا تطاق. مرة أخرى. بعد كل هذه العلاقات الخاسرة التى تركت آثارها فوق وجهى. وعلى جسدى. وفى أعماقى. والتى جعلتنى أبدو كشخص بائس وفاشل فى فن إدارة العلاقات الغرامية. ها أنا على وشك السقوط..

مرة أخرى. على وشك السقوط.

ربما تستهوينى نعومة السحب المتدرج. سواء كنت أنا الساحب أو المسحوب. المتعة الأكبر تأتى منها هى. الأنثى. حين تسحب بدلال وخفة ورقة مثل رمل البحر. يسحبك إلى هناك. حيث الغرق مصير كل حىّ.

لم أرس على شىء. تركت نفسى للأمواج القادمة. التى لسذاجتى المفرطة. كنت أظن أننى أعرفها. وذهبت إلى مكان العمل. والهروب من أفكارى.

فى طرقة الطابق السابع. وأنا متجه إلى مكتبنا. مكتب المصورين الزجاجى الذى يشبه كشك سجائر كبير. قفز أمامى فجأة ما كنت أتجنبه وأفر منه. ما لم يحدث خلال السنوات

الثلاثة الأخيرة. تلاقت العيون الباغتة المصدومة، واتسعت عينا مىّ الخضراوين عن آخرهما. لمحتُ في وجهها فرحة تتخفى. ارتعشت شفتاها قليلاً. وهى تدفع من فمها شلال الكلمات الغزيرة. كما هى أو كما كانت. مجرد كلمات تتتالى دون أن تنتظر إجابة. "واحشتنى". و"دايمن على بالى". " مش مصدقة إنى شوفتك تانى". و"أخبارك آيه؟". "انت كويس ؟"

كنت أظن أننى نسيت طريقتها فى استقبال الناس. الزملاء والمعارف والأصدقاء والحبيب بنفس الطريقة. ونفس الكلمات المندفعة. والتى من المفترض أن تعبر عن مشاعر ما. أومأت برأسى أمام كريزة كلامها وحاولت رسم ابتسامة ما على وجهى. لكنها خرجت ابتسامة مريرة. مرارة ما حدث بيننا.

كانت ظلّى طوال سنوات الدراسة فى معهد السينما. وكانت لى كلها خمس سنوات متصلة. كانت تمسك بأصابع يدها اليمنى إصبع الوسطى الخالى فى يدها اليسرى. نظرتُ إليه برهة لتلفت انتباهى. كنت أريد التخلص منها بسرعة.قالت إنها صارت زميلتى فى العمل وأنها تسلمت وظيفتها كمونتيرة اليوم. وأنها تريد أن تدعونى للغداء فى كافتيريا الدور العاشر. اعتذرتُ بسبب أوردر كاذب يجب أن أنفذه. وجمت قليلاً ثم قالت "أنا اتطلقت. شخص سافل. سافل يا ناصر".

مضيتُ وتركتها تسلط نظراتها على ظهرى. وأنا لا أعرف إن كانت تقصد زوجها السابق بكلمة "سافل". أم أنها تلقح علىّ أنا.

7

ما إن وصلت إلى كشك السجائر، أقصد المكتب، وحييت زملائى الجالسين على الكراسى، والجالسين فوق المكاتب حتى استدعانى الأستاذ صبرى غريب كبير المصورين، بإشارة من يده عبر لوح الزجاج الكبير الفاصل بين غرفتنا ومكتبه. بمجرد دخولى إليه وقف خلف مكتبه الخشبى الضخم، وفتح أحد الأدراج وأخرج من بين الملفات والأوراق ورقة. رفعها فى وجهى وقال إنها شكوى رسمية ضدى تتهمنى بالإهمال والإخلال بواجبات وظيفتى وسوء التعامل مع ضيوف البرامج، وقرأ من الورقة "والسخرية وازدراء شخصيات عامة كبيرة ".

كان يحاول إخفاء ابتسامة لم يستطع كتمانها.

أطرقتُ صامتاً ،وأنا أستدعى وجه نعمان، الذى كان يوماً ما وجهاً بريئاً ساذجاً بشارب مهوش كثيف، لم يعتريه اللؤم والخبث بعد. وتذكرت أنه شرب ورقص كثيراً وانصرف مع كلوديا من الحفل قبل أن تنهى الفرقة البرازيلية فقراتها. كنت أشعر،

بشكل ما، أنه طوال الليل كان يحاول إخفاء حماقة ما ارتكبها، كان عادةً يفشل. يحكى لى بعد مرور أيام. ويتذرع بمبررات واهية.

كان الأستاذ صبرى قد بدأ نصائحه المعتادة، وتوصياته الأبوية التى لا أطيقها، منهياً كل وصية بـ" يا ناصر ياابنى". كان مديراً جيداً يوزع العمل بين المصورين بإنصاف. يتحرك على شعرة إرضاء الجميع، الرؤساء والمرؤوسين بمهارة بهلوان شاهراً فى وجوهنا شعاره الأثير" المصور الموهوب لا المصور التقنى ". تقدم منى ووضع يده فوق كتفى وأنا مازلت مطرقاً مكانى.

" انت مصور كويس، بس موظف خرا".

كان واضحاً أن نعمان أغرى لوسى بالتوقيع معه على هذه الشكوى، وبذكائها فى اقتناص الفرص فعلت، حتى تضمن عملاً مستمراً مع المخرج المحترم.

انصرفت وأنا أهمهم بكلمات لم يفهمها الأستاذ صبرى ولا أنا. لم آبه بما ينتظرنى من تحويل إلى الشئون القانونية، وما يستتبعه من عقوبات قد تصل إلى حد إيقافى عن العمل، وقلت آخذ جولة فى جمهورية ماسبيرو، هواية تلح علىّ أحياناً. أصعد درجات السلالم ببطء وخفة متقمصاً شخصية شارلوك هولمز. أدخل الاستوديوهات ووحدات المونتاج والمكاتب في غفلة من الجميع، وأتفرج محاولاً اكتشاف ماذا يحدث بالضبط. أتلصص على المديرين والموظفين والمذيعين والمذيعات والمخرجين والممثلين والفراشين والعمال والضيوف، أتتبع

الماشين والخارجين والداخلين.. أرهف حواسى لاستقبال الفن والزيف و"الأونطة" والتمثيل والموسيقى. وأحاول شم الروائح العفنة والدسائس والمؤامرات والفساد والأموال المنهوبة. ولا أخرج بشىء، ولا أحس بشىء، ولا أعرف شيئاً عما تكتبه الصحف عن ماسبيرو. أعيش داخله، فيه، ولا أعرفه. فقط أحس جردل ماسبيرو الضخم المليء بكل شىء فى هذه الدنيا ينسكب فوق دماغى لآخره، ويترك ملابسى قذرة ملوثة، وجسدى عفن خربان. يُحيلنى إلى آلة جيدة لحشو أدمغة الخلق بالزيف والباطل والحقائق والأوهام والجمال والقبح والمتعة. آلة تفكير جبارة، هائلة، متعددة الوظائف تفكر للجميع، وتبنى لهم عالماً وهمياً من اختراعها. آلة تلاحقك بالصور والأفكار والأحداث حتى تصير أمامها أعمى. كامل العمى لا ترى شيئاً على الإطلاق.

لا يمتلك أحد، الآن، فرصة ابتكار تليفزيونه الخاص، بنفسه، لنفسه.

لا منفذ.

أنا أعمل فى خدمة كل ما أكرهه. فلماذا ينتابنى كل هذا الغضب الآن على شىء تافه وعادى مثل التحقيق القانونى والعقاب والخُوّزَقة إن أمكن.

بسيطة، بسيطة يا سيدى " كله بيفوت ويعدى".

8

فاتن امرأة تخلو من الزيف والتصنع والتكلف الذى صرت لا أحتمل التعامل معه فى النساء والرجال. أقنعة ملونة من الزيت والجواش والترتر والخرز يدهنون بها وجوههم ويخرجون للقاء الناس مبتسمين ابتسامات بلاستيكية بحرص بالغ حتى لا تسيل الزيوت والألوان. وفى عالم " الميديا " من لا يملك العدد الكافي من الأقنعة فإن فرصته فى العمل والحياة أقل بطبيعة الحال. كلما زادت القدرة على إخفاء الشخص لنفسه كلما صار لامعاً ومرئياً للجميع بشكل أفضل. يختفى اللحم والدم والحضور الشخصى لحساب العرض العام. لهذا يعيش أهل الميديا دائماً فى مواجهة جمهورهم أينما ذهبوا. يظهرون بكامل أدواتهم وحيلهم وأقنعتهم. فأفر من وجوههم. فقط لأنى لا أطيق. لا أعرف كيف ألعب دور المتفرج. وأنا آكل وأشرب وأمزح وأتشاجر معهم. الفيلم السينمائى الوحيد الذى صورته فشل فشلاً ذريعاً. كما يقولون. بسبب فشلى فى التكيّف.

فاتن لا تظهر على شاشة. ليست للعرض العام. وليست. أيضاً. كمحترفات الجنس للاستخدام العام. امرأة حقيقية من لحم ودم وجلد وحضور حيّ مثل بيت، شجرة. حيوان برى طليق فى غابة لا يعبأ بالآخرين. امرأة لا تفعل شيئاً من أجل أن يُعجب بها أحد. يكرهها أو يحبها أحد. هكذا كنت أراها فى بداية علاقتى بها. أو هذا ما استطعت فهمه. ربما أنا الذى كنت أريدها على هذا النحو.

بإصرار ومثابرة كانت تعوّض الزمن الذى ولى بلا عودة. الأيام والشهور والسنوات الطويلة. خمسة عشر عاماً غائمة مهزوزة غير واضحة الأحداث تقع بين هجرتيْن. الهجرة الأولى إلى الخليج العربى الذى كان غارقاً في نشوته وامتلاء جوفه بالذهب الأسود. البترول الذى كسا وجه الحياة بلونه وطعمه ورائحته. وأسال لعاب المهاجرين والمغامرين والباحثين عن لقمة العيش ممن ضاقت بهم البلاد. وهجرة عكسية. فى الاتجاه المضاد. إلى القاهرة بعد أن انتهى زمن الدخل الوفير والأرصدة الكبيرة فى البنوك. واقتناء الأدوات الكهربائية المستوردة. وللأسف كانت القاهرة تستقبل الألفية الثالثة بوجه عجوز نحيلة مريضة. هشة وفقيرة.

الرجل الذى اعتقدت لعشرين عاماً أنها تحبه تركته الآن يلهث خلف بقايا ذكرياته وأيامه معها. أو ربما هجرته لبهجة جديدة. وفرحة عارمة انتابته إثر تخلصه منها إلى الأبد. من يدرى. من يعرف ؟

هى لم توضح لى أبداً هذه النقطة. وأنا لا أريد أن أشعر

بالرثاء لحاله. فأفضل أن يكون سعيداً بالتخلص منها.

على الرغم من كل شىء مازالت رشيقة. جسد صلب مشدود له هذه السمة الأنثوية الباقية للنباتات البرية التى نمت ونضرت فى العراء تحت الشمس والريح والمطر الشحيح. ثديان مكوران مشدودان ونافران فى اكتنازهما وصعودهما لأعلى عكس انصباب الجسم وميله للثبات على الأرض. وخصر متماسك ونحيل. وردفان مفلطحان قليلاً. عاليان وطليقان تحت البنطلون المحبوك الضيق. التميز الوحيد. الذى بدا لى متفرداً فيها كأنثى. الزائد على الجسد هو هذه الضحكة الخاصة. الضحكة الذاهلة المحتفية بنفسها فحسب. يهتز جسمها ويتحرك ويتمايل أثناء الضحك. جسد يضحك برمته مرتوياً خفيفاً ومشبعاً. بعض من اللامبالاة والغرور الخادع يغلف هذه اللحظات الطويلة. يظهر ضحكها كقفزة صريحة الالتباس" أنا بضحك.. الضحك مفيد للصحة.. مفيد جداً. لا تغضب. لا يوجد شىء آخر".

دائماً. هناك شىء آخر. شىء تهكمى وساخر. ربما يفضح المفارقة الأساسية فى حياتها كلها.

كانت تضحك بسهولة. على المظهر الجاد للناس فى الشوارع. عندما أقول عندى شغل. عندما تثرثر في التليفون مع نادية أو مراد وغيرهما. عندما تشاهد التليفزيون أو تجلس أمام الكمبيوتر.. أتخيل أنها كتمت الضحك فى صدرها لمدة خمسة عشر عاماً. وها هو يندفع الآن. يهطل غزيراً. كمطر تصاعد من النيل والبحر ومكث فى شكل سحابات أعواماً

طويلة.

كانت تضحك وهى تذكر لى عادات أمها القديمة معها. كانت تضعها فى البانيو وتحممها بماء الورد. تغسل كل جزء فى جسدها الصغير طويلاً. تضع الكريمات على ذراعيها ورجليها وفخذيها وبطنها ووجهها وكتفيها. وتغسل شعرها الأكرت القصير بالشامبو والبلسم. ثم تحملها بين يديها عارية وتضعها على كرسى صغير أمام مرآة الحمام الكبيرة. وتمشط لها شعرها وهى تقول لها أنت أجمل بنت فى الدنيا " لازم تفضلى جميلة على طول.."كانت تعلمها الإخلاص للأنوثة. فطورت هى طرق عنايتها بجسدها حتى بدت طرق أمها بائسة وفقيرة بالنسبة لما تفعله فاتن بنفسها. هيامها أصيل بمستحضرات التجميل والروائح العطرية ومزيلات العرق والبارفانات. والساونا والتدليك. وحتى الوصفات الشعبية المصرية والهندية والصينية. وحين احتاج الأمر. أضافت إلى عنايتها بجسدها. حرص منتظم ثابت على صبغ الشعر الأبيض والشعر الرمادى من جذوره فى فروة رأسها بالحنة الهندية السوداء الحمراء. عادة جديدة ظهرت بعد انقطاع دورة طمثها. وبداية ظهور الشعر الأبيض فى رأسها.

كانت تجاهد لترمى وراء ظهرها سنوات عمرها كله التى لا تريد أن تكشف لى عن عددها.

أحياناً كنت أسأل نفسى. هل تستطيع امرأة حريصة على إخفاء شعرها الأبيض. والكرمشات والتجاعيد والترهلات التى صنعها الزمن بانتظام فى وجهها وعلى جسدها أن تبدأ

من جديد.. كأن الصبيّة التى كانت تمرح فى حديقة المنيل قد وهبتها روحها من جديد. أقول كأن.. كأن كل ما حدث لها قبل أن أعرفها لا يمت لها بصلة الآن، لا يعنيها.. حياتها، طليقها، ابنتها.. و.. !

9

مازلت أتذوق طعم تلك القبلة فى فمى. مثل جمل يَجْتر طعاماً أكله منذ زمن طويل. كنا واقفين على درجات السلم الداخلى. القطيفة الفوشيا للقصر المتحفى تحت الضوء الخافت الذى تبعثه ثريا أثرية كبيرة معلقة فى السقف العالى البعيد. كنا متوجسين من أن يرانا رجل الأمن الأنيق فى بدلته الكحلية. المكلف بحراسة أوانى الخزف التاريخية وحيطان القصر الجميل. وأسقفه الموشاة بالآيات القرآنية المكتوبة بماء الذهب. والمكلف. أيضاً. بالحفاظ على آداب زيارة المتاحف. وبزجر الزوار غير المهذبين الذين يغريهم جمال المكان ومعروضاته الرائعة بارتكاب أفعال مشينة تُسمى الخروج عن الآداب العامة. تحت وطأة كل هذا حدث ما جرى.

كانت تتقدمنى بدرجة واحدة. حذاؤها يغوص فى نعومة القطيفة. وعطرها الخفيف برائحة الليمون يتسرب من ظهرها إلى وجهى. أشمه بعمق دون صوت فى سحبات قصيرة

كأنى أريد امتلاكها بتثبيت رائحتها فى جوفى. كنت أنا الذى يوعز إليها بطريقة خفية. بصمتى وتأملى لزخارف الحيطان والأسقف. والوقوف طويلاً أمام الجرار الضخمة الملونة. بهزة أطرافى هزة رقيقة لا تكاد تكون مرئية. تتملكنى رغبة جامحة فيها. هنا والآن. فوراً. كانت عجيزتها هى التى استقبلت إشاراتى الجسدية ورغبتى فاهتزت بلطف متموجة بدلال وشهوة تحت البنطلون الأبيض الفضفاض. لم أملك نفسى. أدرتها من كتفيها بكلتا يدىّ. فدار جسدها كله فى اتجاهى. صرنا متواجهيْن بيننا أقل من سنتيمترات. شفتاى ترتعشان قليلاً. وأنفاسى قصيرة تتلاحق. وهى مذهولة مباغتة بصدمة القرب الأول. لم أتلفت حولى. وضعت يدى خلف رقبتها ورفعت وجهها إلىّ. شددت شفتها السفلى إلى فمى وأطبقت عليها. صرت ألعقها وأتحسسها بشفتىّ وأدفع لسانى داخل فمها يتجول. أتركها برهة ثم أعود إليها ملهوفاً مرة. بطيئاً أخرى. أذوقها وأشمها وألثمها. هى كانت تعطينى قبلتها الأولى بالتقطير. تفلت شفتيها منى وتتركنى أطاردها. أنقض برقبتى وجذعى وأنزل إليها. وعندما أمسّ شفتيها تستسلم. وتبدأ هى فى أخذ المبادرة. تعطينى قبلة طويلة تعض فيها شفتىّ الغليظتين. وحين أغرس لسانى ترجع برأسها إلى الخلف جافلة وحزينة لأننى نجحت فى إثارتها.

الإثارة. هذا اللفظ الذى استخدمته بعد ذلك كثيراً للتوكيد على الأهمية الكبرى للولع بالآخر. ما يُشتهى وتُولع به هو ما يثيرها. كنت أثيرها جيداً خلال القبلات لكننى أعرف. من خبرتى مع النساء. أن فن إدارة القبلة ليس هو وحده كل

شيء بين رجل وامرأة. لكنه العتبة الأولى التى يتوقف عليها مصيرهما معاً !

أن تكون القبلة، سواء كانت الأولى أو الأخيرة، باردة، متلهفة، حمقاء ساذجة بلا دربة، عميقة إلى أبعد حد، متأنية، مختالة بذكائها، تلقائية، ساخنة، خانعة، قبلة رائعة روعة طيران الفيل، ينتج عنها احمرار فى الشفتين، بعض الدم يتفجر من الشد والجذب، لا يُعرف من الجارح ومن المجروح، قبلة يعقبها انهيار كامل للجسد كله، أن تكون قبلة طويلة بطيئة تتخللها لمسات متشنجة عجولة للنهدين المندفعين فى اتجاه العاشق، أن تكون فى مكان غير ملائم تماماً لممارستها وتعاطيها، أياً كان الأمر فإن الحقيقة التى أعرفها، الآن، أننى وفاتن نرغب أحدنا فى الآخر بنفس الدرجة من الوله والعنف.

كنت أدرك فى تلك اللحظة أن العشق مجرد لعبة فريدة لا تتكرر أبداً، على الرغم من كل ما مر بى من نوبات عشقية سابقة، الفرادة واللاتكرار هو الطابع الأصيل لهذا الحدث الكبير الذى غالباً ما يحدث دون إثارة السؤال عن معناه أو جدواه. على الرغم من شعورى بالملل والقرف من هذا الذى أفعله كل مرة مع من أعشقها، وإحساسى ببلادة وفجاجة وعادية كل علاقة لى بامرأة إلا أننى لم أتوقف، أبداً، عن ممارسة كل المناورات والحيل والألعاب التى أخفيها، جيداً، خلف كلماتى وعباراتى وإشاراتى حتى أصل بالمرأة إلى سرير العشق، وهى واثقة، متأكدة من أننى أعبدها.

كررنا القبلة الطويلة العميقة ثلاث مرات متباعدة، فى

الحمام الأثرى برخامه الملون بالأبيض والأزرق. وعلى الأريكة الأرابيسك الوثيرة فى غرفة نوم البرنس. وفى قاعة خزفيات العصر الإسلامى فى مصر. كنا نتبادل قبلة التحلية الأخيرة حين ظهر أمامنا فجأة رجل الأمن الأنيق مبتسماً ابتسامة خبيثة. كأنه يخبرنا أنه رأى مشاهد الغرام الثلاثة. وأنه استمتع بها كثيراً. وأنه للأسف مضطر لقطع استنماءاته البصرية بعد أن أوشك على الانفجار. بهدوء ولامبالاة. تقريباً. افترقنا ويدها تمسك كفى بقوة. ابتسمتُ له وعبرناه خارجيْن حين قال ببرود لزج " ممنوع الجلوس هنا".

خرجنا من القصر مبتهجين وأيدينا متشابكة. لا نتوخى الاختفاء أو الفرار من عيون رجال الأمن الذين كانوا قد تجمعوا عند مدخل القصر حول الأمنجى الشاهد الذى. لا شك عندى. يحكى لهم. الآن. التفاصيل الدقيقة. لم ألق بالاً لضحكهم المتصاعد خلف ظهورنا. ربما يسخرون من هذا "الكابلز" الشاذ. الماجن والمستهتر. أنا وفاتن شهدى.

10

كانت تقود السيارة وهى تحرك لسانها ليمس حواف فمها وشفتيها، تستطعم بقايا القبلات فى بطء. لم نكن فى حاجة إلى الكلام. وضعتُ راحة يدى اليسرى على فخذها الناعم وألقيت رأسى على مسند الكرسى وضغطت على عصاته الصغيرة فارتد للخلف. فردت رجلى وجسدى وأنا أحس نشوة هادئة تجتاحنى ويدى ترسم محيط فخذها ونعومة لحمها، وطراوته. أغمضت عينىّ ورحت أُمنى نفسى بفاتن كامرأة شهية، لذيذة، دافئة. مازالت مفتوحة على المستقبل على الرغم من سنوات عمرها التى ضاعت هباءً. سعادة أو شقاوة وألماً. لا أعرف متى كانت سعيدة بحياتها ومتى بدأ الشقاء يدب فى شرايينها. لم أخدع نفسى. إنها ليست شابة جميلة أو رقيقة مثلما كانت مىّ أو عزة. لكننى، الآن، الآن أطمع فى حرارة جسدها هى. أريد أن تكون حرارة جلدها مضبوطة علىّ. مناسبة تماماً لحرارة ودفء قطعة اللحم كمثرية الشكل. ذات الأوردة والشرايين، مضخة الحياة التى يسمونها القلب.

ركنا السيارة أمام أحد المحلات المغلقة تحت مستشفى الشفاء فى شارع الرشيدى. سرنا متجاورين. بحذر. خائفين من أن يرانا أحد. في اتجاه بيتى. كان ريحان قد غادر دكته ودكانه منذ ما يقرب من ثلاث ساعات. الدكان مغلق فى الدور الأرضى وإن كشف عن طبيعة نشاطه برائحته النفاذة العميقة التى تمكث هنا. ربما من قبل أن يوجد حىّ المنيرة. وهذا الشارع الضيق الذى لا اسم له. وهذا البيت القديم . ربما شمت الرائحة. لاحظت. أخذت بالها. لا يهم. البيت مظلم وهادىء وبابه الحديدى الكبير مفتوح.

صعدنا السلالم الحجرية العتيقة وهى تحضن ظهرى. ويداها حول خصرى. فى ضوء ولاعتى السوداء الكبيرة. لا صوت ينبعث من شقة جمعة . ربما ناموا بعد الرقص المعتاد. استندت بجذعها ورأسها على كتفى. وأنا أفتح باب الشقة فى هدوء وبطء متجنباً إحداث أية ضجة. أصبحنا فى الغرفة الكبيرة بين السرير والمكتب . والصور الفوتوغرافية المعلقة بإهمال على الحيطان. أخذتُ أنفاساً عميقة على طريقة تدريبات اليوجا وهى تجلس على السرير تهدأ نفسها من ذعر التسلل. " كنا لصين ماهرين ". قلتُ وضحكتُ . فابتسمتْ وشوحتْ بيدها كأنها لا تفهم لماذا يجب أن نتسلل.

ذهبتُ إلى الحمام . اغتسلتُ تحت مياه الدش الباردة وأنا أغنى. وارتديتُ الترينج المنزلى الأسود. وتركت ملابسى على شمّاعة الحمام وعدتُ إليها منتعشاً. كانت قد خلعت ملابسها وبقيت فى قميص أخضر قصير مفتوح الصدر.

شفاف وبسيط . بدت تحته بشرتها البرونزية كأرض يخرج منها بشائر الزرع. كانت ممددة على ظهرها. ساكنة. مغمضة العينين. تمددتُ إلى جوارها. ووضعت يدىّ على نهديها. وصرت أفرد أصابعى على آخرها. أجمعهما معاً. يفيضان فأتشبث بجمعهما معاً. ثم أترك يدى بين المفرق العارى.. وتسكن حركتى.

فتحت عينيها وأنا أميل برأسى لتقبيلها. قالت :

" على فكرة.. أنا معنديش حاجة أقولها لك عن الحب".

صمتُ برهة. ثم انفجرت ضاحكاً. مقهقهاً

" ولا أنا ".

عندما أُقدم على اللذة أخرس. أخرس تماماً.

رحتُ أقبلها متلهفاً مندفعاً فى كل جزء من أجزاء جسمها. لا أدرى ما أفعل. مفتوناً وعارياً أصعدها. وأهبطها. وأحرثها. واحد آخر خرج من جسدى وصار يفعل. وأنا مازلتُ غير مصدق حقيقة ما يجرى أمام عينى. كان أجمل مشهد رأيته فى حياتى. مشهدى وأنا أدخلها وأخرج منها. وأحلق طائراً منقولاً خارج ثقلى وبُطْئى وجسمى الثقيل. أتعلم من جديد وأعرف أن كل ملذات الأرض يمكن أن تُصهر فى امرأة واحدة. فى ملذة واحدة. يمكن أن يحدث مرة. ولو مرة واحدة فى الحياة أن أصير مرتوياً.. شبعاً.. ثملاً.. مفعماً.. شيئاً من هذا القبيل. انتابني فرح غامر مجنون لم أذقه من قبل أبداً.. أنا. أنا الخبير بالفتيات الصغيرات.

كل ما لدَىّ لأبوح به حتى يصير عشقى موجوداً. أن أقول لأحد ما. أى أحد. ريحان أو نعمان أو أكرم. حدث شىء لا يوصف. لا يمكن الإمساك به . شعرت بلذة لا تحتمل . لذة كاملة تامة نهائية . لا. لا يمكنك تخيل ما حدث لى فى هذه الليلة الأولى معها.

11

" بحبك ".

هل قلت لفاتن وأنا أضاجعها هذه الكلمة.

يبدو لى أن أقول لأحد ما كلمة " أحبك" أننى أهينه بشكل ما.

لم أعد أقولها لأحد مطلقاً.على الرغم من أن أية امرأة. منذ لحظة لقائها الأول برجل سوف تنتظر. بنفاد صبر. أن تسمع منه هذه الكلمة المعجزة. وتصر على الحصول عليها بأية طريقة كانت. سواء بذلت كل مفاتنها وأعطته شفتيها ونهديها وجسدها كله. وأغدقت عليه من رائحتها وطعمها ولذتها أو احتجبت خلف الدلال والرقة والنعومة والبراءة المصطنعة. كانت كريمة فى المنح أو شحيحة بخيلة ستنتظر أن تسمع الكلمة التى لا يرضيها سواها. وحين يقولها لها أحد مرة واحدة. على الأقل. تعرف أنها امتلكته نهائياً.

أنا أهدرتها كثيراً. مرات عديدة، ولم أكن أعرف أن خسارتى ستكون فادحة.

فى مراهقتى. قلتها لسحر وشفتاىّ ترتعشان وقلبى يغوص فى صدرى ويهبط ببطء شديد إلى أسفل. وأنفاسى لاهثة تتلاحق. ووجهى منقوع فى جردل بوية أحمر. لم أكن أفهم أنني أثرثر أكثر من اللازم. كان يكفى أن أنتظرها فوق سطح البيت إلى جانب عشة حمام أبيها. تأتى خجلة وبريئة وعلى ناصيتها الدقيقة قطرات عرق. آخذها من يدها وأجلسها فوق فخذى وأتحسس وجهها وأقبلها بشراهة وعنف حتى أجرح شفتيها فتغضب . وتدفعنى بيديها بعيداً عنها. تعدل فستانها وهى تقسم برحمة أمها أنها لن تعود لمقابلتى. ثم تعود فى اليوم التالى فأسترضيها وأتحسس ظهرها الناعم وخصرها الهش النحيف. وأدفع يدى فى فتحة الجلابية المشجرة الطويلة وأمسك نهديها الكبيرين المنتصبين برمتهما. وهى تتأوه لدقائق ثم تنفلت منى. تسبنى وتشتمنى وتتهمنى بقلة الأدب والحياء. وتندفع تنزل السلالم راكضة. وبعدها بثلاثة أيام تأتى فوق السطح حين يهبط الظلام بعد آذان العشاء. هذه المرة أدفعها داخل عشة حمام عم عثمان. أبيها الذى يسكن الشقة فى الدور الأرضي. أجْرأ وأخلع عنها جلابيتها بسرعة. فى شدة واحدة حاسمة من أسفل إلى أعلى. أخلص رأسها من طوق الجلابية وأندفع أحضنها وأقبلها مشدوهاً. خائفاً أكثر منها وهى ترتعش وتولول. وتحاول الإفلات منى. أزنقها فى ركن تحت أقفاص الحمام المنزعج الذى يطير ويرفرف داخل القفص. يصنع صوت ارتطام الأجنحة ببعضها

جلبة صغيرة. مذعورة منى تضع يديها فوق صدرها وفوق كيلوتها الأحمر الصغير. أتوسل إليها أن تتركنى أحضنها. أحضنها بس. تولول وتضرب البلاط بقدميها. أحضنها قصراً. وأقول لها وفمى فى أذنها وأنا أرتعش "بحبك".

تهدأ وتتركنى أعصر جسدها وأبلل لباسى بماء دافىء لزج.

بعدها. لم تعد سحر تنتظر أن ينتهى أبوها من تطيير حمامه قبل غروب الشمس وينزل . لتصعد هى بأية حجة لترانى أقف على السطح الواسع. ومعى كاميرتى الياشكا. ألتقط بعض الصور. لامرأة تتلصص على المارة من شباك قديم. لمآذن بعيدة. تبدو بعيدة ولكنى أعرف أسماء المساجد. لأطفال خائفين يمسكون بأيدى بعضهم البعض وهم يعبرون بين السيارات شارع خيرت. صور كثيرة للقلعة من هنا. وبرج القاهرة. وحمام يطير في السماء.

فى ليالٍ عديدة لم أكن أفعل شيئاً. كنت أجلس أنتظرها أن تصعد.

لم تعد سحر تصعد إلى السطح بعد أن أفرطت. وفرطت. وقلتُ ما قلت.

الآن. يبدو لى أن هذه الكلمة لا تكتسب شيئاً بتكرارها. وإهدارها والإلحاح بها. والتوسل بها إلى الآخر أن يرحم. يبدو لى أن هذه الحروف. فى النهاية. منفرة . تضع حداً. وتنهى ما كان من الممكن أن يستمر لفترة من الزمن. ولو قليلاً. ساعة أخرى. لحظة واحدة أخرى. إنها ترتبط بصورة ما بشىء آخر. يبتعد عنا

سنوات طويلة، ترتبط بالحليب الممتزج بالماء.. سائل أبيض شفاف يميل نحو الزرقة والعذوبة، لكنه ليس حليباً خالصاً، ليس غذاءنا الأول الوحيد والكامل والكافى، والذى لا نحتاج لغذاء سواه طوال عامين كاملين من أعمارنا. كلمة سخيفة ماسخة فعلاً.

لم أقلها لفاتن أبداً. لم أبصق فى وجهها هذه الكلمة.

12

فى الصباح التالى جاءت فاتن قبل أن أسمع صرير باب دكان ريحان. كنتُ قد أعطيتها نسخة من مفتاح الشقة قبل أن تذهب ليلة أمس. لا أدرى كم نمت. نمت نوماً عميقاً صافياً بلا كوابيس، ولا أحلام ولا صور. صحيت على أناملها فوق وجهى. قالت بابتسامة عذبة:

"وشك صاااافي.."

"وانتِ. مانمتيش ولا آيه؟!"

"بالعكس. نمت ثلاث ساعات.. وقمت نشيطة جداً.. ومشتقالك".

خجلتُ قليلاً كصبى وسكتُّ.

كان وجهها خالياً من الأصباغ والماكياج. فبدا لى صبوحاً رائقاً كأنها استحمت لتوها فى نهر وجاءتنى. تقفز من عينيها

فرحة عذبة، وإغواء رقيق. وضعتُ يدى حول خصرها واحتضنت بطنها برأسى. كانت رائحة جسدها الصابح تملأ مسام جلدى، أنفى ووجهى، وجسدى. رائحة ذات رغوة وكثافة تسيل على جلدى كخمر معتق. رشفت جلد بطنها بلسانى وأصابعى تتحسس ببطء استدارة أعلى ردفيها. أفتح كفى الخشن، وأحركه فى دوائر صغيرة على عجيزتها. أحس نعومتها وطراوتها وانحناءاتها. أحصرها بكفى، وأدع يدي بين مفرق ردفيها وأغمض عينىّ. أرهف حواسى وخلايا جلد يدى فينتفض قلبى فى صدرى كأن سكيناً رشق فيه واستقر والدماء تسيل حوله وتتفجر منه. يسيل جسمى الأعمى كله. وأنتفض قائما من رقدتى واسترخائى. آخذها كلها إلىَّ. أحضنها. أخلع عنها بلوزتها البيضاء وسوتيانها وجيبتها السوداء وتخلع هى عنى ملابسى. أضمها إلىّ بقوة، وأغلق يدى على خاصرتها من الخلف متشبثاً بها. ووركيها الممتلئين يلامسان فخذى. انفصل عنها قليلاً وأرجع للخلف. أراها عارية ومنتظرة. تتأملنى أيضاً. بشرتها البرونزية رائقة ومشبعة فى ضوء الصباح النافد من الشرفة الواسعة. تتمدد غرفتى وتتسع. تتحرك حيطانها ويرتفع سقفها كأنها غرفة كونية معلقة فى سماء تشرف على مدينة بين الجبل والنهر. لا أطيق انفصالى عنها. فآخذها إلىّ كلها. وأصابع قدمىّ تمسان مشط قدميها وأصابعها. يذوب جسمى وينحل إلى خامته الأولى. فأصير جلد وأنف وعظام ودماء. نختلط ونتداخل. أحسها كأطرافى. كذراعى وأصابع كفى وقدمى. وعضوى. نصير جسداً واحداً مكتملاً. مرتوياً شبعانا يُطل من سمائه البعيدة

علـى المدينـة الخربـة المهجـورة، مفـارقـاً، ومنتشـيـاً، ومكـتفيـاً بنفسـه، بلذته، ومعرفته وعيونه الكثيرة الـتى تبصـر وتعـرف.. جسـد كبير ذكـورى وأنثوى يهتز مـن الـرغبة والشـبق، ولا يسـمع العـالم سـوى صـوت آهاتـه ورهزاتـه وحركاتـه الـتى تتتـالى كموسيقى خالصة تتخللها بعض الأصوات البدائية.. كنا فى هـذا الـزمن المغلـق اللامبـالى بالعـالم، صـوت أغـانى الأميبـا والكلاب والأسـود والبلابل والبنـى آدميين.

13

غفوتُ زمناً لا أدريه، واستيقظت، مازلتُ على سريرى، أنظر أمامى فأجد صينية طعام موضوعة على فخذى، فيها سندوتشات جبن وبيض وبسطرمة، وفاتن جالسة على حافة السرير تأكل بشراهة "جعانة.. هاموت".

وضعتْ سندوتش جبن فى يدى..

" قولى بأه.. عرفت ده كله منين.. إزاى؟! "

" يعنى آيه؟ "

" يعنى.. أنت تجنن.. تجنن، وأنا خلاص اتخبلت، اتخبلت".

ضحكتُ من قلبى.

" وماله؟ "

" هتتريق عليّه ولا آيه..؟ "

" طب تعالى، نامى جنبى ".

أخذتها فى حضنى، وصرت أثرثر، أتكلم كلاماً كثيراً يأتى من مكان عميق مجهول فى نفسى. الجنس.. الجنس أيقونة أيامنا هذه، أيقونة وحيدة صارت مقدسة، ربما أكثر من أى شىء قدسه الناس طوال تاريخهم الطويل. الجنس بكل صوره ولغاته وأنواعه وأوضاعه طافح كفيضان عظيم هائل، فى ثرثرات النساء على عتبات الدور فى الأحياء الشعبية، وفى نوادى الخاصة والأثرياء، فى الأحاديث والدردشات والنكت التى يتبادلها العمال والموظفون والأطباء والفلاحون والصحفيون والسياسيون والفنانون ورجال الأعمال، وكل الأعمال.. فى البيوت، والشوارع وعلى كراسى المقاهى والمكاتب والبارات. قلما يلتقى اثنان دون أن يجر أحدهما الكلام فى اتجاه موضوع جنسى، الفضائح الشخصية، والفضائح العامة، مجتمع بأكمله يسبح فوق غابة من الأجساد العارية، أجساد النساء والشواذ، العفيفات والعشيقات والزوجات والمومسات والفنانات ونساء الأعمال الجديدات.. الجنس على شاشات التليفزيون والفضائيات والكمبيوتر والإنترنت والسينما، فى مجلات البورنو السرية، والصحف العادية، والصفراء والسوداء، والكتب الجيدة والكتب الرديئة.. موجود كنهر، كجبل عظيم، كهرم خوفو، لكننا لا نعرف عنه شيئاً مطلقاً، لا نلمسه ولا نحسه ولا نفهمه ولا نستمتع به، نخجل ونخاف ويركبنا الرعب منه رعب إلقائنا فى نار جهنم فى الحياة الآخرة. نكتفى بأن نجعله مجرد عشبة برية لمداواة الجروح والندوب والأمراض والخراب الشامل.. الجنس لا يفرض سلطانه سوى لأنه التعبير

الأتم الكامل عن خراب حياتنا. حياتنا هنا والآن التى تجعل من المستحيل على الواحد أن يقول شيئاً ما. أى شىء عن الجنس.

14

جاء نعمان إلىَّ بقدميه بدون موعد وعلى غير انتظار. عادةً يفضل مباغتتى حين يُسيىء إلىَّ. وأتجاهل الأمر ولا أنبس بكلمة. لو ضغط زر الجرس وفاتن معى لتركته ولو قضى اليوم بطوله واقفاً أمام الباب. فتحتُ له. تردد قليلاً وهو يدارى توتره وخجله بالنظر إلى الأرض مرة. وإلى وجهى مرة أخرى. تركته وعدت إلى المطبخ لأجد الماء الذى تركته فوق النار يغلى فى دوائر صغيرة ويتصاعد منه بخار يتكاثف على حواف البراد. سمعت صوت إغلاق باب الشقة خافتاً، ووقع خطواته السريعة يتصاعد باقترابه منى. أعطيته ظهرى وتشاغلت بإفراغ الماء المغلى فى الحوض والتحديق فى الكوب الفارغ الذى يستقر بقعره ما وضعته من شاى وسكر قليل.

" ناصر.. أنا ما اشتكتكش . كل اللى حصل إنى أتكلمت مع الأستاذ صبرى. كلام شفوى وخلاص.. أعرف منين إنه هيعملها شكوى رسمية ؟!"

كنت أعرف أننى لن أحمله على الاعتراف. سيظل يلفق الأكاذيب، يدعى ويشتكى، وفي النهاية سيكون على استعداد لسحب شكوته الرسمية التى كتبها بخط يده، ولكن حتى هذا لن يفيد الآن. فقد حولونى إلى الشئون القانونية، وسيحققون معى لا محالة، وهو يعرف ذلك. وقد أتى فقط لإظهار براءته أمامى. كل مرة كان يفعل الشىء نفسه، تقريباً. حاول كثيراً أن يوقع بينى وبين مىّ. ما زلتُ أذكر له العديد من الحماقات والشرور الصغيرة. كان يدبر المكائد والمقالب وأحياناً المصائب بروح مهرج شرير. لو بحثت فيه . فى تلك الأيام، أية دلائل لإعجاب حقيقى بمىّ، بمشاعر ما صادقة، ربما كنت قد تفهمت ألعابه، وتعاطفت معه، لكنه كان، فقط، يشعر بغيرة غير مبررة، أحقاد مجانية صغيرة مثل تلك التى يتبادلها الأصدقاء والزملاء .كل يوم تقريباً.

"مش هيحصل حاجة يا أخى، ما تخافش أنا هشهد معاك".

وضع يده على كتفى، ونظر فى وجهى مبتسماً ابتسامة صافية.

"كله هيبقى فل".

نعمان مفيد فى بعض الأحيان مثل البطارية الاحتياطية للكاميرا، يمكن العمل بدونها، ولكن من الأفضل وجودها. هكذا أتعامل معه منذ زمن طويل . منذ اكتشفت نزعاته التدميرية التى لا تخلو من كوميديا سوداء.

على كل علاته ليس نعمان واحداً من أسوأ الناس الذين

صادفتهم. كانت شقته المفروشة الصغيرة فى شارع الثلاثيني القريب من المعهد مرتعاً لنا جميعاً. شلة المعهد التى تلاشت، وانسحبت من حياتى، ولم يبق منها سوى شاهد واحد يذكرنى بهم كلما جاءت سيرة أحدهم. نعمان كان الأسرع والأنشط، وصاحب العلاقات المتشابكة، قليل الكلام فى الفن. برجماتى لطيف تحول من مشروع كاتب سينمائى موهوب إلى مخرج تليفزيونى "نص لبه". ظروف السوق وأكل العيش، كما يحلو له أن يبرر حياته.

"عندك حاجة تتاكل ؟"

فتح الثلاجة وأخرج كل ما فيها من بيض وجبن وطماطم، وطبخ أومليت كثير البصل والبقدونس. واستغرق وقتاً طويلاً فى إعداد سلطة خضراء رائعة.

جلسنا نأكل. كنت أمضغ ببطء وشرود.

" لوسى دى هى أس البلاوى كلها. بنت تافهة. بذمتك تفهم حاجة فى أى حاجة ؟ حتى وشها عدة الشغل دبلان زى الفجل البايت بتاعك.. بشرتها اتدمرت. "

"وبعدين ؟ "

" وبعدين. ماتنساش يا صاحبى إنها عدت الأربعين بزمن.. آيه ؟! وبعدما نستحمل الأرف ده كله يروحوا يشتكونا ! "

كنتُ قد رتبت نفسى على البقاء طيلة النهار فى الشقة. ملابسى كلها متسخة وقذرة. يجب أن أغسل اليوم. تركته

يواصل الأكل بشراهة. ورحت أجمع القمصان والبنطلونات الملقاة فى أرجاء الشقة. على الأرض. وفوق المكتب. وخلف الكراسى.

رميت الملابس فى فوهة الغسّالة الإيديال. وضغطت زر التشغيل. زمجرت وامتلأت الشقة فجأة بصوتها الصاخب الرتيب بينما كان الضجيج الذى تصنعه أفكارى المشوشة والمختلطة أعلى منها كثيراً.

أكل وشرب وقلب فى ألبوماتى وصورى وكتبى واستلقى على السرير. ونام بعد دقائق قليلة. لا يزعجه الضجيج المستمر للغسالة. كان يستطيع النوم العميق. على الرغم من ضجيجنا. وحديثنا ومشاجراتنا في غرفة نومه. كنا خمسة. ستة. أحياناً عشرة يأكلون ويشربون ويتبادلون الأفكار والبنطلونات والقمصان والجنيهات القليلة والأسرار والمواجع. وكان هو بشهامته الصعيدية عمدة الدوار المفتوح للجميع. لم يتعرف بعضناعلى البعض فى مدرجات المعهد وطرقاته وحديقته. كان يكفى أن يعرف أحدنا طريق شقة نعمان ليصير صديقاً للجميع.

هو اختارنى. ذات صباح يوم شتوى ونحن فى الفرقة الأولى: كنت أجلس على السلالم الرخامية فى مدخل المبنى الرئيسى . وبدأ المطر يهطل خفيفاً على الأشجار والبلاط والنافورة الصغيرة فى وسط الحديقة. فقمت من مكانى. ورحت أتجول تاركاً الماء يغمر شعرى وملابسى. خلعت جاكتى الأسود الثقيل ورحت أطوح به فى الهواء وأشوط برك الماء الصغيرة وأصيح .

أدور حـول نفسـى رافعـاً وجهـى تجاه السـماء والمطـر. كانـت الحديقة خالية ومعظم الطلبة فى المحاضرات. من خلف ظهرى دفعـتنى يـدان قويتـان فانـدفعت نحـو الأرض. وكـدت أسـقط. تماسكت بصعوبة والتفت خلفى فوجدته. على بعـد خطـوات منى. يرشنى بالماء ويقهقه وهو يصيح " مجنون.. مجنون ".

سبع سنوات ليس زمناً طويلاً. لم أعد أرى . منذ تخرجنا. من الشلة المندثرة سوى أكرم . وباسم أذهب إليه أحيانـاً. أكـرم لم يختـف تمامـاً. أراه مـرة كـل شـهرين. أو ثلاثـة شـهور. حضـوره. وغيابه مفاجىء. أكون قد نسيته فيظهر أمامى فى المقهـى أو على باب شقتى أو حتى مصادفة فى ميدان التحرير. وأظل أراه يومياً حتى أظن أننى سأراه كل يـوم فيختفـى. آخـر مـرة كنـا نتحـدث عـن الشـلة الـتى انـدثرت . فـادعى الحكمـة الـتى يصطنعها بوقار ظريف وقال:

" أنا أقول لك. الصداقة. إن وُجدت. برميل خشبى كبير من الخمر المعتق. إذا لم تملك نفسك أمامه. إذا شـربت منـه كـثيراً. ثملت للغاية حتى تفقد القدرة علـى المشـى والـتفكير. وتظـل جالساً فى مكانك سعيداً منتشياً. ولا تـراهم وهـم ينصـرفون جميعاً عنـك. لأنـك كنـت سـكران طينـة. وإذا شـربت قلـيلاً. كأسين مثلاً. بقى لك عقلك وشعورك. وبقى مزاجـك معتـدلاً لدرجة تثير الملل والضجر منك . لكنك فى هذه الحالة سوف ترى انصرافهم عنك وتعرفه وتفقه أسبابه ". ولما وجـدنى أضـحك من لهجته أضاف جاداً :

" اشرب قليلاً أو كثيراً مـن البرميـل الخشـبى. لكـن لا تلـم

أحداً. لا تلعن الأيام السوداء، ولا تثق بأحد، حتى بى أنا. افهم وتجلد واحتمل وحدتك حتى تصير حراً. حراً تماماً."

رغوة مسحوق الغسيل كثيفة، وحارقة على يدى وذراعى. أنفضها، وأواصل الدعك، والشطف وتنفيض البنطلون بقوة، فيسقط الماء على بلاط الحمَّام. هكذا يجف بسرعة عند نشره.

وحدها الباقية برفقتى طيلة الوقت. صاحبتنى منذ كنت صبياً فائق النشاط. دائماً بين يدىّ، أعلقها من شريطها الجلدى الأسود فى رقبتى وأتركها تستقر على صدرى، وأخرج إلى الشارع متباهياً فخوراً بنفسى فخراً صبيانياً يثير أقرانى. لا أحد منهم يمتلك كاميرا ياشكا يابانية. أبى يعطينى كل شهر أربعة جنيهات كاملة. مبلغ ضخم، ثروة لصبى فى الرابعة عشرة، ولكننى كنت أنفقه عن آخره فى شراء فيلم كوداك٣٦ صورة بثلاثة جنيهات، والباقى يكفى للطبع والتحميض. عم شيكو المصوراتى العجوز صاحب استوديو "المنظر الجميل" يخصم خمسة قروش من أجر طبع الفيلم لأننى . كما كان يقول وهو يمسح صلعته العرقانة دائماً. زميل صغير عفريت وزبون دائم. فى البداية كنت أصور كل ما يقع عليه بصرى، كل شىء. استيقظ فى الخامسة صباحاً، وأخرج من بيتنا فى شارع خيرت الخالى فى هدأة ما قبل الشروق، أنظر للسماء وأراقب الضوء الفضى وهو ينتشر ببطء. كنت أحب مشهد شروق الشمس فوق المآذن والقباب والبيوت والشوارع شبه الخالية من الناس قبل أن يقتحمها التلاميذ. يظهرون خارجين من الحوارى الضيقة فى جماعات صغيرة، يرتدون مرايلهم الدمور البنية

وشنطهم القماش المعلقة وراء ظهورهم . على أكتافهم. والبنات. البنات الأجمل والأذكى تتأرجح ضفائرهن الصغيرة على صدورهن التى لم تنبت بها نهود بعد. يثرثرن ويقفزن متضاربات. ويلعبن . ويذهبن لشراء سندوتشات الفول والطعمية من مطعم الجحش في شارع مارسينه. كنت ألتقط لهن الصور فيضحكن. ويضعن أيديهن فى خصورهن أو يستعرضن أجسامهن الصغيرة فى أوضاع يقلدن فيها ممثلاتهن المفضلات . شريهان . يسرا أو ليلى علوى.

كن يتحلقن حولى. ويظيطن ويتعلقن بكمىّ قميصى . وبنطلونى. الجريئات منهن يطلبن الصورة ويسألن متى أعطيهن إياها. كنت أتخلص منهن بصعوبة. ولا ينجدنى من أيديهن الصغيرة المتشبثة بى سوى جرس المدرسة الابتدائية ذات السور العالى والباب الحديدى الأخضر في أول شارع مارسينه . نسيت اسمها وبقيت ذاكرتى تحتفظ بوجوه بعض بناتها. إنهن هنا. فى ألبوم صورى الفوتوغرافية القديمة. وفى أدراج مكتبى.

كنتُ ماكينة تصوير فتحت خط إنتاج سريع فى حارات وعطفات السيدة زينب. التقطت مئات الصور للجامع والقبة والميدان ومقام سيدى العتريس. للناس المتعلقين بحديد المقام . للآتين بالنذور من أعماق الصعيد والدلتا والنائمين على العتبات. المصلين والدراويش واللصوص والباعة والشحاذين والمدّاحين والفاسقين.. حتى السيارات المنطلقة فى شارع بورسعيد. كنت أحب السيارات الكبيرة البيضاء التى تمرق

كسحابات على الأرض. لم أترك شيئاً يمكن للعين رؤيته دون أن أحاول امتلاكه بكاميرتي. أجتاز الميدان وأتجول في شارع الخضيري. أحصى الأسبلة والزوايا القديمة المتهدمة. يغريني الرخام الملون في سبيل أم عباس بتصويره وأنا واقف بين مسجديّ شيخون القبلي والبحري. وحين أتعب من المشى والوقوف الطويل أمام ما أصوره أجلس على سلالم مدخل جامع ابن طولون منتعشاً تلفح وجهي نسمات الصبح الباردة. السماء فوق رأسى مفتوحة أطولها لو رفعت يدى . سماء صافية ساذجة وبريئة مثلى.

كان أبى يرى صورى بعد أن أحمضها وأطبعها عند عم شيكو. يتأملها طويلاً. وهو ينظر في وجهى متفرساً كأننى أخفى تحت وجهى وجهاً آخر غريباً عليه. لا يعرفه. كان يقول " دى حلوة " أو " دى وحشة ". ولكنه كان دائماً يربت على كتفى ويبدو مبسوطاً بما أفعل.

الياشكا العزيزة أول ما امتلكته من كاميرات مازالت فى جرابها الجلدى فوق المكتب الخشبى فى حجرة نومى. عدستها الساحرة البارزة تنظر إلىّ. ترانى وتحيطنى وتراقبنى. تتبعنى وأنا أتحرك فى المساحة الصغيرة بين المكتب والسرير. أفتح الأدراج وأخرج منها ألواح الجيلاتين البرتقالية والزرقاء وألواح الكلك البيضاء. والعدسات مختلفة الأبعاد. أضعها فى حقيبتي الجلدية الصغيرة وأعلقها على كتفى وأترك الياشكا مكانها. منذ سنوات بعيدة لم أستخدمها. أنظفها وألمعها وأتحسس كتلتها السوداء كأنى أعامل امرأة رهيفة الجلد تخدشها غلظة

الأصابع حين تلمس نهدها. ولا شيء أكثر. لم أعد متحمساً لاستخدامها. إنها تذكار قديم بعيد عني بُعد صباىّ.

سأخرج إلى العمل. وأترك نعمان نائماً.

انتهيت من الغسيل والنشر. وارتديت ملابسي. ووضعت الحقيبة على كتفى وخرجت.

لدىّ أوردر. عمل تافه آخر من أعمالى العادية.

لا أعرف ما الذى دفعنى إلى الجلوس إلى جوار ريحان. كان يحدق فى القماش والإبرة الطويلة تنغرس بسهولة فى النسيج. وهو يشدها بقوة. ويغرسها ثانية فى مساحة أخرى. وجسده كله يهتز هزة رتيبة فى حركة مألوفة عند الخياطين المهرة. يعمل بنشاط وإتقان. ولا ترتعش يداه مثل العجائز والطاعنين فى السن.

جلستُ على الدكة إلى جواره. مرت دقائق طويلة. وهو مستمر فى الخياطة دون أن يبدى أية إشارة تنم عن إحساسه بوجودى على بعد سنتيمترات قليلة من جسده الضئيل. ظللت أتأمله. وأنا أحسده على هذا الاستغراق الرائع فيما يعمل.كأن العالم فى خارج القماش والدكة قد تلاشى عنده.

قال فجأة دون أن يرفع وجهه عن القماش. بصوت خافت ودود :

" يا مرحب يا استاذ.. خطوة عزيزة ".

هممت بالكلام. لكنه استطرد :

" أنا عارف إنك مشغول. اللّه يكون فى عونك.. الشغل فى التليفزيون متعب.. وانت وحدانى. ما حدش يراعيك يشوف لقمتك ولا لبسك.. اسم اللّه عليك فى عز شبابك ".

باغتنى بهذا الاهتمام الحميم الذى لم أعرفه منذ سنوات طويلة.

" ياابنى عليك بالجواز. الجواز سُترة للراجل زى الست بالظبط ".

ورفع وجهه باتجاه الدكان وأشار لصبيه بيده :

" شاى وشيشة للأستاذ ناصر ".

" انت عندك عروسة ليّه ولا آيه يا عم ريحان؟! "

" بس كده. أنقيلك بإيدى.. بس هى تعجب؟ "

" انت عايش هنا من زمان ؟ "

" من زماااان.. من قبل الملك فاروق ما يقعد على عرش مصر ".

وسكت. وصار كل فترة من الزمن يردد "أهلاً . أهلاً وسهلاً".

شربت الشاى وحجرين معسّل وحاولت جر ريحان فى الكلام لكنه كان يتكلم بحساب دقيق موزون. كان يعرف عنى أكثر كثيراً مما توقعت. ارتحت لأنه لا يضمر لى شيئاً سيئاً. وإن كان

تلميحه لعلاقتى بفاتن لم يكن بريئاً، ولا مبتذلاً . أشعر أنه يعرف، يفهم ويقدر وإن كان يتعجب قليلاً من حالى.

15

كنتُ جالساً فى المخزن الرئيسي العتيق بالدور الثانى. قريباً من باب ٢. باب خروج الكاميرات والمعدات والشرائط والفنيين. حجرة كبيرة مستطيلة. حيطانها العالية الكالحة زال لون طلائها منذ سنوات بعيدة. ربما لم يطلها أحد منذ بناء مبنى التليفزيون فى أوائل الستينات. فى أركانها عششت العناكب. ونسجت خيوطها ومصائدها الرقيقة الجذابة. وقبعت اثنتين منها أو ثلاث فى المصائد. ساكنة منتظرة وديعة فى انتظار الذباب الضال.

أمام المكتب الخشبي الكبير. الذى يسد معظم مدخل المخزن. بالكاد ينحشر الشخص بين المكتب وحلق الباب ليدخل. يجلس هانى يعقوب أمين المخزن بجسمه السمين المترهل بين كومتين من الدفاتر والشرائط. كلما جئت لأتسلم الكاميرا والمعدات وفنى الصوت وطاقم الإضاءة. يطلع لى من وسط الدفاتر والشرائط بوجه متجهم . وبشفتين غليظتين

متلهفتين على الثرثرة والشكوى. يبادرنى. قبل أن أجلس أمامه. وينطلق فى مونولوج طويل . يبدأ عادة من زوجته . ماتيلدا دائمة الشجار والمناكفة. دائمة الطلبات والاحتياجات والحاجات. طلباتها تتجدد كلما ظهر على شاشة التليفزيون إعلان جديد عن منتج ما. سلعة قديمة. جديدة. ضرورية. كمالية لا يهم. المهم أنهم يعلنون عنها. لهذا فهى تحتاجها جداً. للغاية. ضرورى جداً امتلاك السلعة المعلن عنها. يسميها ماتيلدا البلأعة. البلأعة الواسعة العميقة التى سقط فيها وهو مغمض العينين منذ خمس سنوات. يقسم أنه لا يأكل كثيراً كما كان فى بيت أمه. وعلى الرغم من أن ماتيلدا نحيفة عجفاء ممصوصة. جلد على عظم إلا أنها عرسة تأكل كل ساعتين وجبة كاملة وتنسى. لا يبين عليها أثر أكل أو شرب. يشرق وجه هانى. وتنفرج جهامته ويفقد ثلاثين كيلو جراماً من وزن جسده حين يشرح لى شطحاته المعتادة. المشاريع المستقبلية التى سكبها فى أذنى مراراً بإصرار وتعنت وينسى أنه أخبرنى بها من قبل مرات عديدة. يريد أن يتخلص من ماتيلدا والعيال الثلاثة الذين أنجبتهم بسرعة خارقة الواحد بعد الآخر. فوق رؤوس بعض. كى تكلبش فى جثته إلى الأبد. كلبشة أخرى نهائية أبدية. يريد أن ينقص وزنه عشرين كيلو جراماً بعد رچيم مريح ناجح . فشل الرچيم خمس مرات من قبل. ويصير أخف وأرشق وأخف كى يستطيع تتبع سيرة جده الذى هاجر إلى استراليا. يذهب هناك. ويتزوج امرأة استرالية فارعة الطول. جميلة ورقيقة ويمرح معها فى الأرض البكر. هكذا يتصورها. الأرض التى لا توجد خارج استراليا. القارة

الوحيدة التى لم يصبها التلوث المميت بعد. الطبيعة التى نشأ فيها الإنسان ويجب أن يعود إليها.

" استراليا.. استراليا حبيبتي ".

ضحكت وقلت فى خبث :

" استراليا ! يا عم الناس كلهم بيروحوا أوروبا أو أمريكا! "

فزع كأنما أصابته لدغة ثعبان واتنتر من مكانه وزعق فى :

" أمريكا !! أمريكا لأه.. أنت مجنون. أمريكا مطحنة. معجنة. أنا عارفها كويس. كل قرايبى اللى راحوا هناك بقوا ناس زى الزفت ".

ربَّتُ على كتفه فهدأ قليلاً. شرب زجاجة الماء الممتلئة التى كانت على المكتب في جرعة واحدة. وسألنى بجدة :

"وانت؟! "

"أنا إيه؟ "

"مبسوط يعنى فى البلد دى؟! "

"أنا قاعد. لا رايح ولا جاى ".

نظر إلىّ شذراً. وجلس . وعاد إلى دفاتره وسكت.

فى آخر المخزن. وفى مواجهتى على الأرفف الخشبية الكبيرة التى تلف حيطان المخزن تنتصب حقائب الكاميرات. والإضاءة.

والمعدات. أسلط عينىَّ على الكاميرا " الديچيتال " الجديدة التى وردت إلى التليفزيون منذ شهرين فقط. جسمها الطويل المستطيل ينساب بلا غلظة. عدستها الكبيرة اللامعة تعطى إمكانيات جديدة لم تكن معروفة لكاميرا الفيديو. تمنح عمقاً فى الكادر إلى حد ما واقتربت كثيراً من كاميرا السينما التى كانت تأتينى فى أحلامى أكثر مما كنت أستطيع أن أتدرب عليها فى المعهد. الآن. أستطيع أن أبدأ تجاربى عليها. هذه الديچيتال الجميلة.

كلما تقدمت التكنولوجيا صارت أحلامى أقرب إلى الواقع. فى نفس الوقت. صار إدراكى أن أحلامى مجرد أوهام خادعة يقيناً.

بعد ثلاثين عاماً سأخرج على المعاش برتبة كبير مصورين !

وسأظل حريصاً على مشاهدة القبح المستشرى فى أفلام هذه الموجة الجديدة. التى صارت السينما الوحيدة. فقط لا غير. سينما هى نوع من التسلية الصالحة للعبيد. عبيد الآلهة الجديدة والاستهلاك البشع لكل شىء. للمنتجات والمأكولات والمشروبات والمشاعر والأحلام والأوهام أيضاً. أفلام لهو للأميين. الكائنات البائسة المستنفذة المتبلدة من كثرة همومها. أفلام لا تتطلب أى شىء سوى الجلوس باسترخاء والاستعداد لهز الجسم فى ضحكات ميكانيكية خارجية. فى أفضل الحالات قد تفلت ضحكة واحدة من القلب. أعمال لا تتطلب أى تركيز. ولا تفترض فى المشاهد أى نوع من أنواع ذكاء الحيوانات العليا. لا تذكى فى القلب أى جذوة أو أمل سوى

الأمـل المضـحك فى أن يصـبح المـرء فى يـوم مـن الأيـام نجمـاً سـينمائياً." ميـديا " فقـيرة تغـذى أوهـام الـهـوس بالشـهرة والنقـود. بجنيـه تسـتطيع أن تصـير مليـونيراً أمـام شاشـة التليفزيـون أو عـبر سـحب بنـك يتحايـل علـى سـرقة النـاس ليعطـى لصـوص أكـابر. وفى الظـلام. فى صـالة العـرض تجلـس لتشاهد نفسك بطلاً فى قصـة تعـدك رغـم فقـرك وجهلـك وتفاهة وضعك، بأجمل نساء العالم تقع فى غرامـك، وبـأموال غزيرة تتساقط فوق رأسك قبل نهايـة الفـيلم بقليـل. وبـذلك تستطيع أن تحكى للجميع عن عصاميتك وكفاحك، وتنهرهم أيضاً لأن باستطاعتهم أن يصيروا مثلـك، ولكنـهم هـم. هـم الذين لا يفعلون.

سينما وقحة فاسدة مثل حشيش مضروب بالبرشام.

لغوا الأوردر. لم يرسلوا تصريح خروج الكاميرات. رائع. الأمن يقظ ونشط. كان المخرج يعرف. فلـم يـأت ولم يكلـف خـاطره بإخبارى، وتركـونى جالسـاً سـاعتين فى انتظـارهم. ممنـون. لـدىّ اليوم وقت للتجول فى وسط البلـد. والتسـكع. والجلـوس علـى مقاهى المثقفين. ربما أرى أحداً أعرفه هناك. إنهم هنـاك دائمـاً. يثرثرون ويدخنون ويتناقشون، يقيمون العـالم ويقعدونـه بجـوار أحذيتهم على بلاط المقاهى. طيبون وشرسـون وفقـراء ومـدبجو مدائح ومراثٍ بالية، وصانعو جرائم محترفون.

كنت أمشى ببطء، وشنطتى معلقة على كتفى تتـأرجح. عيناى نشيطتان فى متابعة التغيرات الطفيفة، التى غالباً مـا تتغير بسرعة فى شـارع سـاحل الغـلال حيث فندق رمسـيس

هيلتون ومركزه التجارى. المقاهى القديمة التى تظهر كأقبية تحت الأرض دفنتها المقاهى الجديدة التى تعمل فى تسريح طالبات الجامعة. يقفن على الناصية لالتقاط الزبون ثم يصحبنه إلى مقهى " النتّوس" للاتفاق على التفاصيل. جميل مقهى النتوس هذا. بترابيزاته الرخامية وكراسيه المعدنية. وجرسونه الأنيق ذى البيبونة الحمراء. والبنات جميلات ومثيرات فى استرتشات ضيقة. وصدورهن مفتوحة تندفع منها نهودهن الكبيرة . يضعن عطوراً رخيصة. لكنها كافية لأن تنشر فى الشارع كله روائح الياسمين والجنس والليمون والبنكنوت والقهر.

ضحكت وأنا ماشٍ فى الشارع عندما تذكرت إنصاف.

كان نعمان فى أيام الجُمَع يأتينى فى شقة مدينة نصر بصحبة إنصاف. بانتظام تقريباً مرتين كل شهر. قدمها إلىّ بوصفها عاهرة غير متفرغة.

كانت تعمل فى مصنع للصابون والزيوت العطرية كعاملة عادية على الرغم من أنها تجاوزت الأربعين. عللت ضاحكة رسوبها الوظيفى. الذى استمر نحو خمسة وعشرين عاماً. بأنها غير مهتمة بأن تصير ملاحظة عاملات أو رئيسة وردية. فمكانها كعاملة قديمة وكبيرة فى السن يحفظ لها بعض المزايا الخاصة. بصراحة. كما تقول. لا تحب فى الدنيا شيئاً سوى الجنس والأكل. تأخذ أجازات اعتيادية. مرضية. تنقطع عن العمل. تزوغ فى كثير من الأحيان. وتسرح باحثة عن الزبون.

ولأن إنصاف عبارة عن كتلة لحمية سمراء ضخمة ذات ثديين مصبوبين متماسكين ومنفصلين. وعجيزة عالية كبيرة تهتز فوق الوركين الممتلئين . وبطن له كرش مدور صغير. إضافة إلى وجه كبير مستطيل بأنف أفطس وعينين صغيرتين. ومظهرها العام بلدى. بطرحتها الملونة ذات الأشجار والورود الصغيرة. وجيبتها السوداء الواسعة. وبلوزتها من البوليستر اللامع الرخيص. كما أن نظارتها الشمسية المربعة تايوانية. فإن كل ذلك لا يعطى انطباعاً لدى الزبون بأنه أمام بضاعة جيدة.

كانت إنصاف تشكو لى دائماً من الكساد.

" البنات يا اخويه مايصين. يلبسوا المحزق والملزق ع اللحم. استريتش يبين جتة الواحدة. والبلوزات مفتحة ع البحرى تنط منها صدورهم . وبشوية تقصيع ومياصة يلهفوا الزبون.. داهية تاخدهم".

كانت تتكلم عنهن بحقد عميق. وغيرة وإعجاب. يزاحمنها. حتى في أماكن صيدها التقليدية القديمة التى اعتادت الاصطياد منها منذ أكثر من عشرين عاماً. كان لها مزاج خاص في الزبون. تحبه شاب لا يتجاوز الثلاثين. بسيط المظهر. فقير وشحط. لا يهمها ما ستأخذه من مال. أحياناً تعمل مجاناً إذا أعجبها الزبون. "المهم المزاج يا جدع ".

يوم التقطت نعمان كانت تقف أمام مطعم الأمريكين في شارع ٢٦ يوليو. أعجبها بدنه الطويل العريض وشاربه

الأسود الكثيف. استوقفته. ووضعت يديها في خصرها وأطلقت نهديها للأمام وقالت له بصوت مبحوح وهى تسبل جفونها :

" تنام معايا يا اسمر ؟ "

يحلو لإنصاف أن تتحرك في الشقة على راحتها . في لباسها الأحمر الطويل الذى يصل إلى أعلى ركبتيها . وسوتيانها الدانتيلا الأحمر ذى الشراشيب البيضاء الطويلة. حركتها رشيقة رغم ضخامتها، وملابسها قديمة ونظيفة. تقرفص على الأرض في المطبخ وتحشو ورق العنب والكرنب. تقضى نصف يومها النهارى في طبخ المحشى والكوارع التى أحضرتها معها.

تمتلأ الشقة برائحة المحشى الحامضة الحريفة.

تضع الأطباق الكثيرة على الترابيزة وتنظر إلينا بإشفاق حقيقي.

" كلوا وانتوا معصعصين وهفتانين ".

وتظل واقفة إلى جوار نعمان. تسند جسمها على ظهره، وتلعب بأصابعها فى شعره مبتسمة.كزوجة جيدة جداً، وهو يأكل بشهية مفتوحة كزوج طيب.

بعدها يدخل نعمان إلى حجرة النوم لينام ساعتين. أتمدد أنا على الكنبة أمام التليفزيون، وهى تجلس على كرسى عند رأسى تتفرج وتتكلم وتلعب فى شعرى. لا أعرف سر هيامها

باللعب فى شعر الرجال، ربما الحنين للأمومة!

كانت قد جاءت من قبل نحو أربع مرات، وفى المرة الخامسة بدا لها أننى أهملها، وأننى غير معجب بها.

" وانت يا اخويه ما ليكش فى النسوان ولا إيه؟!"

انفجرتُ ضاحكاً وقرصتُ وركها العارى

" وانتِ مالك يا وليّه ؟ "

" أبداً، صعبان عليه يا نن عين أمك.. قاعد لوحدك كده زى قرد قطع ".

نعم " قرد قطع ". "قرد قطع " منذ مراهقتى. كنت أنسحب من أصحابى فى المدرسة الثانوية حين يذهبون إلى سينما الشرق للفرجة على أفلام نادية الجندى، وأتركهم يلعبون الكرة فى مركز شباب السيدة الذى كان عبَارة عن حوش واسع مترب وسط البيوت، ولا أذهب معهم إلى العتبة للتسكع ومعاكسة البنات. كنت بسبب تعليمات أبى، مدرس اللغة العربية بالمدرسة الخديوية الثانوية، لا أختلط بالعيال فى الشارع، ولأنه رجل تربوى فقد عوّضنى عن صحبة أقرانى بإهدائى الياشكا، لأظل أجول، وأجول ألتقط الصور.

16

لستُ مثل مثقفى اليوم. أتحدث عن السياسة. والفاقة والأزمة الاقتصادية والفساد. والديكتاتورية والعولمة والقطب الواحد . والإرهاب. وإحساس الناس بالهزيمة والفشل والإحباط. ونجوم شبابيك السينما الجدد والهوس بالاستهلاك والسعادة الفردية. ولا أنا أتكلم عن الأشياء الصغيرة والتفاصيل الحميمة والجسد والجنس وموت القضايا الكبرى وسقوط الأيديولوجيات وحياد النصوص. والكتابة الباردة. الأجدى لى أن أتحدث عن الحرب والقتل والعنف والموت لأننى لا أتحدث سوى عن العشق. العشق فحسب.

ماذا يسمى الناس هذا الشخص الذى يصر على التشبث بالخطأ مقابل كل الآخرين. مقابل العالم كله. وكأن أمامه الأبدية ليخطئ ؟ يسمونه مغفلاً . ساذجاً . أهطلٌ. أنا اسميه باسمى. فمن امرأة لأخرى. من وجه لآخر . من ناس لآخرين لا أكف عن العشق. ولا أكف عن السقوط. السقوط المريع من

الدور الثلاثين على الإسفلت العارى . أسقط دون أن يقاسمنى أحد . دون أن يرانى أحد. دون أن يعرف أحد.

أنا فى حالتى هذه أشبه الشاطح الأكبر . الحلاج مثلاً شخص غير مقبول. مرفوض من ناسه وأهله ومجتمعه. أنا لا أعترض على شىء. ولا أتحاور مع أجهزة السلطة . وكهنة الفكر وأهل الأدب والعلم والإدارة.. لستُ بالضرورة حيوان آبق أو طائر شارد من السرب. الخرافى هو أننى لا أثار. لا أستفز. فى المقابل يخضعنى ما يسمى بالمجتمع لكبت عجيب فوق الرقابة والمحرمات.. إننى معلق.فقط. بعيداً عن الأشياء والعلاقات الإنسانية بقرار تفاهة ضمنى. لا أنتمى لأية قائمة . ولا لأى مأوى..

دعنى أحكى لك عن فاتن.

17

من فوق عارضة القفز الخشبية الداخلة إلى نحو الثلث الأول من حوض السباحة الكبير قفزت. قفزة هادئة لم تثر كثيراً من اللغط ودوائر الماء. كانت تشق الماء الساكن برأسها وجسدها كسمكة كبيرة رشيقة تنساب بنعومة وخفة. ومايوهها الأزرق قطعة واحدة . فى لون وملمس سحابة . وبشرتها البرونزية متوردة ومشدودة. تعوم بهدوء وبطء واستغراق . تحرك ذراعيها بالتبادل كمجدافين صغيرين. قدماها زعنفتان مفتوحة الأصابع. تلمع استدارة كتفيها فى لقائهما بمنبت الذراعين . تلمعان ببريق لاسع تحت شمس الظهيرة الحارقة . اللافحة. المتسلطة بعنف على الأجساد العارية والرؤوس المكشوفة لها.

تحرك فخذيها وقدميها بمهارة وخفة من تعلم السباحة طفلاً . تدع الماء يغمرها كلها . يدخلها. ينعمها ويرقق جلدها و يطريه. تستلقى على ظهرها . فيطفو جسمها فوق الماء

كنبات أزرق مبلول وحىّ . تغمض عينيها وتنسحب من علل التفكير إلى لحظات غفلة واستكانة. لا شىء. لا شىء فى رأسها. تأخذ أنفاساً طويلة عميقة وتزفرها ببطء وراحة . تشم رائحة الماء . رقتها . عذوبتها. ورحمتها فى الصهد المستمر لهذه البلاد.

كان حمام السباحة المستطيل الكبير ، الذى تلمع جوانبه بسيراميك ملون ناعم . قليل الرواد. زبائن مترفون . قليلون ومتباعدون . سبعة رجال . عشر نساء على الأكثر . إنجليز وفرنسيون ومصريون وعرب . ولا أحد من أهل البلد. حمام سباحة فى الظهيرة هو الجنة هنا. وتحت المظلات المنتشرة حول حمام السباحة كان البعض يسلى نفسه بمتابعة السابحين والسابحات فى ملل.

كانت مازالت مستغرقة فى متعتها الصافية مستلقية على ظهرها . مغمضة عينيها حين تزحزح الماء تحتها فجأة . وهبط مثل مرتبة إسفنجية. وانفجرت موجات صغيرة حولها وطرطش الماء على جسمها. لأول وهلة لم تنتبه لما يدور حولها . انزعجت قليلاً. وفتحت عينيها. فوهة من الماء خرج منها ذراعان أشقران الشعر. طويلان بكفين بيضاوين تلمعان وتتساقط منهما قطرات ماء . بعدهما خرج. كأنه يأتى من عمق سحيق . رأسه جميل كتمثال رومانى. وجهه أبيض مدور.وعيناه زرقاوان وشعره طويل مرجل إلى الخلف. كانت له أيضاً . كما يقولون . ابتسامة ساحرة. هل كان يقصدها هى بحركته الصبيانية ؟

اضطربت قليلاً . وتلفتت حولها بلا هدف لتبتعد عن عيونه المسلطة عليها . تدرج الدم فى وجهها.ونفرت عروق ذراعيها. توردت أذناها وأحست حرارة تنبعث فيهما. ابتسمت لنفسها لأنها خجلت. مازالت تخجل وتغضب مثلما كانت. منذ سنوات بعيدة عن ذاكرتها الآن . تحزن مثل حمل وديع من معاكسة طلبة الثانوى. وهى خارجة من باب المدرسة الثانوية. صعد إلى وجهها نفس التعبير القديم. فرحت لأنها لا تزال تخجل.

كان يعرف صديقتها هنا.

جاء نحوهما . وقد ارتدى شورتًا أبيض وترك صدره كثيف الشعر عارياً . وفى يده تى شيرت أزرق. كانت فاتن قد ارتدت ملابسها كاملة . الجوب السوداء الواسعة . والبلوزة الحريرية اللبنية المقفولة عند العنق. حيّا صديقتها فادية وتبادل معها حديثاً قصيراً .بإنجليزيته الركيكة. داز حول الحر والملل وصعوبة الحصول على الخمور. قالت لها فادية إن ديديه موظف فرنسى كبير فى بنك دولى هنا . وأنه متزوج من فلبينية.

ابتسمت فادية ابتسامة رخيصة وهى تقول :

" واد زى القمر ".

يبدو لها أنه كذلك.

ألحت لها أن حياتها صارت كئيبة مقفرة تحتاج إلى غرفة الإنعاش . الإنعاش السريع . وأنها تحتاج صدمة كهربائية قوية

للقلب حتى يسترد عافيته وبهجته . وتظارفت بدم ثقيل على زوجها الذى يبدو أن طول سنوات علاجه لأمراض القلب قد جلب عليه هو أيضاً وجع القلب. تركتها فاتن تستكمل مزاحها ونكاتها اللاذعة المصبوبة على زوجها . وراحت ترقب ديديه الذى كان قد اجتاز البوابة الخارجية والتفت إليها وهو يلقى نحوها نظرة طويلة . أحستها شرهة وسوقية . فلم ترفع يدها لرد تحيته.

فى الحر اللافح الدائم معظم شهور السنة تبدو المدينة أعمدة منتصبة على إسفلت الشارع . عمارات وبنايات وأبراج مصبوبة نظيفة لامعة مغلقة النوافذ. المكيفات تعمل طيلة الأربع والعشرين ساعة. الهواء ساكن لا يتحرك . خال من التراب والشوائب والأدخنة . لكنه ميت . لا صوت له إلا حين يندفع من المكيفات الضخمة. هواء من صنع التكنولوجيا الجميلة. كل شىء رخام وألومونيوم وزجاج ومعدن . سيارات فارهة . آخر موديلات السنة و الموديلات التى لم تظهر بعد. والناس . الناس منتجات بالغة الاختلاف والثراء . شرائح من شعوب وأمم وقبائل وأعراق من كل أنحاء المعمورة والمهجورة . هنود وباكستانيون وفليبينيون وأفارقة و إنجليز وأمريكان وفرنسيون ومغاربة وشوام ومصريون.. معمل خرافى لاختبار كيف تعيش الأنواع الإنسانية معاً فى محيط من الأرض والسماء لا تتعدى مساحته مساحة حىّ منيل الروضة. والمدينة فخمة وثيرة. وحلم تكنولوجى. وماكينة ضخمة لطبع البنكنوت الرائع. البنكنوت الرائع.

كان زوجها يتركها وحدها ست عشرة ساعة فى اليوم . وثمانى الساعات الباقيات يقضيها نائماً نوماً عميقاً تحسده عليه. وحيدة. وحيدة تذرع الحجرات مشياً . ركضاً . جرياً . أو استلقاءً على الظهر مفتوحة العينين تفكر فى لا شيء. تتحرك من المطبخ، مركز حياتها هنا . إلى الشرفات. تقف خلف زجاج الألوميتال تلقى نظرات على الشارع الواسع النظيف الذى قلما يسير فيه الناس على أقدامهم. تعود إلى حجرة النوم. تجرب القمصان والبلوزات والجيبات والكيلوتات الجديدة دائماً . تلاحظ دهونًا جديدة نمت تحت ثديها . ترهل رهيف فى الردف . عرق أزرق جديد نفر فى وركها الأيمن . شعيرات بيضاء جديدة أضيفت إلى الخصلة الرمادية. تفكر فى أن تعبر له عن ضجرها . أن تشتمه وتسبه وتصفعه على وجهه بكل قوتها. قالت له ذات مرة إن النقود وحدها لا تصنع السعادة، والبهجة . فرد عليها جاداً بصوت جاف. صوت من يقرر الحقائق "نعم . النقود لا تصنع السعادة . إنها تصنع الحياة". هل بقى لديها رغبة . ولو ضعيفة فى أن تذكر. وتذكّره بسنوات غرامهما الأولى . لا تنسى. ولا تستطيع أن تتحمل سخرياته إذا ما بدأت كلامها بكلمة "فاكر".

تنظر إلى ساعة الحائط الأنيقة بتوتر. ترتدى ملابسها . وتهرول إلى الشارع. تقود سيارتها على مهل لتتمكن من مشاهدة الناس. لكن المسافة قصيرة. تتوقف أمام المدرسة الإنجليزية لتقفز هاجر إلى جوارها . وتروح تثرثر عما حدث اليوم فى المدرسة فتتحمس لسماع أخبار البنات والمدرسة والناظرة الإنجليزية.

تطبخ وتغسل وتصبغ شعرها بالحنة الهندية وتستقبل، أحياناً، حلقة الأصدقاء والصديقات، الأسر الطبية المعقمة، ليمضى الوقت فى الأكل والشرب والثرثرة والنميمة وإعادة اجترار للفضائح الصغيرة فى مستشفيات المدينة وبيوت الأطباء وسكن الممرضات والفنادق العالمية. تذاكر للبنت . وتتبادل بعض العبارات المعتادة مع زوجها تخص مصروف البيت والطبيخ والملابس والرصيد فى البنك، وتنام. تنام طويلاً، أربع عشرة ساعة كل يوم.

بعد أسبوع، خرج لها مرة أخرى من الماء. هذه المرة جاء نحو طاولتهما مبلولاً ينفض الماء عن شعره الطويل. يبدو مختالاً بجسده المتناسق العارى يتعمد إثارتهما. لم ترغب فاتن فى السباحة اليوم. كانت تثرثر مع فادية عن فوائد شوربة الجمبرى. جلس بينهما، وطلب منهما الاستمرار فى الكلام بالعربية لأنه يحب أصواتها. ولما سكتتا قال إن لديه أريكة عربية من الأرابيسك والصدف، تحفة بكل المقاييس، وأنه سيسافر قريباً إلى باريس، لم يحدد موعد السفر بعد، وأنه يريد أن يبيع تحفته لشخص صاحب ذوق رفيع يقدر قيمة هذا العمل الفنى الرائع . لا يهم المال، المهم أن يكون شخصاً يتوسم فيه الذوق . الذوق ومحبة الجمال.

حسمت فادية الموقف بأن قالت بلهجة من يقرر للآخرين بحزم . لا بأس أن تراها فاتن . فإذا أعجبتها تشتريها.. " فاتن لها ذوق جنان".

كانت فادية تكبرها بنحو ثلاث سنوات فقط، وعلى الرغم

من ذلك فإنها تبدو أكبر بنحو عشر سنوات على الأقل. جسدها الكبير متهدل الأطراف . وجهها مثل عجينة طرية لها بروزات وانحناءات هي ما تشكل العينين. والأنف ذى المنخارين الواسعين والفم الواسع الثرثار. تتحرك على الأرض ككرة ضخمة منفوخة تتدحرج ببطء. امرأة ملولة. لا يفوتها شيء مما يجرى حولها . تطرقع الكلام مع طرقعة اللبان فى فمها. تعلق على أجساد النساء وهى تكتم حسدها الصادق. لهذه نهدان مدوران متماسكان . ولهذه وركان عريضان ناعمان ولتلك عجيزة ملفوفة لا تقارن ولا توصف. فاتن أحد نماذجها الجمالية المفضلة فيما يخص الخصر فقط. تكاد تمسكه بين يديها لتتأكد من نحافته وتماسكه. أما الأرداف كاملة الاستدارة . القوية المدورة والتي يشقها عمق رائع فقد كانت تنال إعجابها أكثر من هذه الأرداف النحيلة المسطحة. لم تكن تنسى الرجال أبداً. لا تخفى فتنتها بالرجال الطوال . مكتنزى العضلات. أصحاب الوجوه المنحوتة الغليظة . والشوارب الطويلة كثيفة الشعر . بالنسبة لها رجل بلا شارب هو صبى أو امرأة. كانت تتخذ من الهيئة الخارجية للرجل مؤشراً لما يحتمل أن يكون عليه عضوه السرى المختفى تحت الشورت. كانت مثل فاتن فى هذه البلاد . طبيبة متقاعدة زوجة طبيب يعمل بكد ونشاط طيلة الوقت.

هكذا اقترحت فادية لقائهما . وهى شغوفة . يسيل لعابها عندما تتخيل ما سوف يحدث بينهما . ستضغط على فاتن لتعرف. وحتى يحدث اللقاء. ستروى لذتها بتصور المشهد الذى تتوق إلى رؤيته بعينيها . وهى تكتم حسرتها. إنها

للأسف لا تستطيع . لأسباب خاصة ببنيتها الجسمية . أن تكون بطلة المشهد الخاص الذى قلّبت فى رأسها صوره وضحكاته وهمساته. آه من اللذة الفادحة التى ستتحصل عليها فاتن. لماذا لا تسمح لفادية بالمشاهدة. المشاهدة حتى ولو من ثقب الباب.

قالت فاتن بمكر، وهى ترى لعاب صديقتها يسيل على شفتيها وذقنها. إنها ليست فى حاجة إلى كنبة عربية. وتركته يسحبها إلى شقته برقة ومهارة . وبطرقه المحنكة التى يبدو أنه يمارسها كثيراً. لم تهتم. كان منظره وهو خارج لها من الماء حين رأته للمرة الأولى كافٍ لغفران ابتذال مهاراته التى كشفتها بسهولة. كانت تتوق إلى التجربة ، ترى نفسها وقد تخلصت من تسلط زوجها ، وتسلط حضوره فى دماغها طول الوقت. لقد تحول فى الآونة الأخيرة إلى مجرد خيال مآته فى حقل مهمته إخافة العصافير وإبعادها عن الثمار التى بدأت تنضج وتثمر. ابتسمت لنفسها وهى تراه يفشل فى إبعاد عصفور ماكر. على الرغم من شطارته المشهور بها فى علاج أمراض القلب ، خاصة المزمنة منها والتى لا شفاء لها. كان كثيراً ما يردد على سمعها مدحه الذاتى الأثير" أنا أفضل طبيب قلب ، على الأقل ، هنا فى هذا الخليج الواسع".

كانت أريكة بديعة فعلاً. شغل رائق ، بقواعد جمالية صارمة. استغرق صنعها زمناً طويلاً. عاشق ومعشوق فى كل شبر منها . أرابيسك معشق بصنعة ومهارة. وبدون استخدام مادة للصق. كنبة طويلة .أطول من ثلاثة أمتار، عرضها

يقترب من المتر . لها ظهر مستطيل عال كله من وحدات متناسقة تشكل أشكالا هندسية متجاورة من المستطيل والمربع والدائرة. وفى المركز صرة صدفية كبيرة لامعة ومذهبة تخطف البصر. القاعدة أيضاً مطعمة بالصدف الأبيض والأسود وألوانها لازالت بحالتها الأولى . زاهية ومشبعة وعند المتكأين حشوات عريضة. أريكة نموذجية للراحة الكسولة الناعمة . يجلس المرء على تنجيدها القطيفة المرتفع. ويضع تحت إبطيه اثنتين من مخداتها الحريرية . التى يتغير لونها بسقوط الضوء عليها. ويغفل عما حوله.

لاحظ ديديه إعجابها الذى لم تستطع إخفاءه . فابتسم ابتسامة واسعة، وذهب، فى ثقة، ليصنع القهوة. تركها تجرب متعة الاستلقاء على الحرير الناعم.

كانوا يجيدون صنع الأشياء التى يستخدمها الناس يومياً فى حياتهم .ولم يكونوا يبخلون بالجمال أيضاً. كانت حضارة عظيمة انتهت نهاية مأساوية. هذا الفن الجميل هو ما بقى أقوى من أى شىء آخر. ما يحتاجه الناس هو أن يعيشوا بشكل مريح وجميل.. هكذا . واستلقت على الكنبة.

عاد . وضع كوبىّ القهوة على منضدة صغيرة وجلس إلى جوارها . فاعتدلت.

" أنتِ تعجبيننى أكثر من الكنبة".

لم تتمالك نفسها من الضحك. كانت المقارنة بينها وبين الكنبة لاذعة.

انتهز الفرصة سريعاً . ووضع يده اليسرى القريبة منها حول كتفها . ونزل بأصابعه يتحسس جلدها حتى مفرق نهديها . وهو يهمس :

"صدرك أيضاً رائع . تعرفين . حين كنت تعومين على ظهرك كان نهداك طافيين وحدهما يتطلعان للسماء ".

أبعدت يده بغضب حقيقى . وتباعدت عنه قليلاً . وقفلت زرار بلوزتها العلوى . فرفع فنجان قهوته إلى شفتيه . ودون أن ينظر إلى وجهها المضرج بالحمرة . راح يتكلم عن حياته المملة هنا . يفتقد باريس وأصدقاءه هناك . من أجل المال يغير الناس حيواتهم وأصدقاءهم وعاداتهم . وفى النهاية لن يستطيعوا بالمال الذى جمعوه أن يستردوا ما فقدوا أبداً.

تحاشى ذكر زوجته التى ذهبت فى رحلة صيد مع أصدقائها.

استدار بجانبه، وأصبح مواجهاً لها . ترقرقت عيناه الزرقاوان الصافيتان . أو هكذا ظنت هى . بدموع خفية عنيدة، بدت وكأنها حقيقية. كان حزيناً بالفعل كممثل بارع . وهى أرادت أن تصدق أنه متألم للغاية. عاد فوضع يده على كتفها ويده الأخرى حول خصرها . صارت في حضنه، فنزل بشفته على أذنها اليمنى" أنتِ امرأة جميلة.. جميلة جداً ". جذبها إلى صدره . وراح يقبل جبهتها الصلبة المرتفعة. فى بطء تهبط شفتاه إلى وجهها . يلحس الجلد . ويتذوقها . حتى أطبق على شفتيها وهى مكورة في حضنه. كان قد ملك جسدها

كله الآن . فدس يده الكبيرة تحت جيبتها الواسعة، وأخذ يمسد وركيها برقة . استراحت يده فوق فرجها . ويده الأخرى تعصر نهدها. اندلع فى جسمها خدر لذيذ.. لذيذ وناعم نعومة فرنسية معطرة.

كانت المرة الأولى التى تنام فيها مع رجل. زوجها ليس رجلاً.. إنه زوجها.

18

لم يلاحظ زوجها أنها صارت أجمل قليلاً فى الآونة الأخيرة. تورّد وجهها، ودب فى جسدها دم جديد كأنها أجرت عملية باهظة لتغيير دمها القديم. على الأقل ثلاثة لترات دم طازج من فصيلة مختلفة لامرأة مترفة أصغر بنحو عشر سنوات. ولم تتعرض للغربة والمنفى والوحدة والملل ! من الصعوبة وجود مثل هذا الصنف من النساء فى بلادنا. أياً كان الأمر . فإن دماً جديداً قد سرى تحت جلدها وهب صورتها العامة حيوية ونضارة وميل إلى المزاح والضحك والسخرية من زوجها. صارت . أيضاً . مفاصل ركبتيها وحوضها وكوعيها أنشط فى الاستجابة لمشيتها الجديدة. وأصبحت حركة جسدها سريعة رشيقة . تمتاز برعونة صبية مشاكسة فى السادسة عشرة من عمرها.

صُدمت فى زوجها . ولكنها لم تسمح للمرارة أن تستولى عليها. إنه منذ سنوات لم يعد يعرفها. لم يعد يراها. قلل هذا

من شعورها بالذنب مما فعلت، ومادام هذا لا يعنى شيئاً للآخر. فلماذا تشغل نفسها بالأمر. إنه كالعادة يمهد للغرام بوضع شريط جديد فى جهاز الفيديو " ولم لا. مرحباً بك زوجى العزيز".

كان يركبها وهو يتفرج على فيلم البورنو المكسيكى. وهو يدخن سيجاره الكوبى الفاخر برائحته العبقة التى اعتادت أن تسحبها بمتعة كبيرة . تاركة جسدها يعمل وحده معه. مسترخيًا وهادئًا كان يتابع المشهد على الشاشة، وينتظر أن يأتى دور وضعه المفضل. كان تلك الليلة أكثر ثقة فى نفسه، وأكثر بطئاً. وكلما استلزم الوضع الجديد حركة منه كان يتجنبها . يومىء برأسه لها أن تقوم بالحركة المطلوبة، وهو ينفخ الدخان على مهل صانعاً سحابة صغيرة فوق رأسها.

كان، الآن، يستمتع بحصاد كفاحه الطويل من أجل الوصول إلى هذا الوضع السعيد. عندما كان فقيراً . وشاباً كان يمتعها حقاً، ويفتح فى جسدها طاقات للحياة والمرح. كان يكفيها ويوسع حدود حياتها التى كانت ضيقة وسخيفة بدونه.

فى تلك الليلة أدركت أنها لم تعد تريده . ولو لمرة واحدة أخرى.

وبعد خمسة عشر عاماً من الحياة بعيداً عن مصر . ها هى تعود. عودة نهائية هذه المرة بعد أن طُلقّت مؤخراً من زوجها. حرب صغيرة خرج منها الزوج طبيب القلب رجلاً وحيداً فى الخمسين . لديه عمل بدخل وفير . وابنة مراهقة ستعيش

مع أمها فى القاهرة مؤقتاً . لديه أيضاً بعض الأموال بالدينار والدولار والجنيه فى البنوك . وقليل من الأصدقاء فى المستشفى والنادى . وشقة فاخرة مغلقة فى القاهرة. خسر امرأة كلفته الكثير من النقود والوقت خلال سنوات الزواج العشرين . لكن لا بأس. بالحساب التجارى لعقلية طبيب شاطر مثله. ربما يكون قد كسب كثيراً بهذا الطلاق الذى وقع قبل وقوعه الفعلى بعامين على الأقل . تمردت خلالهما عليه . وهربت إلى القاهرة أربع مرات من خلف ظهره. يردها إليه أهلها ثم تهرب من جديد.

بحساباته. كان كريماً معها. تركها تحتفظ بهداياه الذهبية والبنت، وطلب أن تبرئه من نفقة المتعة وخلافه. أبرأته غير مبقية على شىء . وغير نادمة على التفريط فى حقوقها المالية. راجية أن تكون قد أصابته بجرح بالغ . نافذ يدميه بقية حياته. كم أسفت لأنه لا يدرى شيئاً عن مغامراتها مع ديديه. ومَنْ بعده.

خلال المعركة مع زوجها من أجل الحصول على الطلاق فازت بكاتمة أسرار من نوع جديد عليها. فنانة تشكيلية . كما تحب أن تقدم نفسها للآخرين . تكره الرجال حتى النخاع. وتنام مع طوب الأرض لتنتقم لنفسها ولجنس النساء من جنسهم الملعون. ولتؤكد لهم بغضها لكل ما هو ذكورى جلف و غليظ. والحقيقة أن نادية رستم كانت فنانة بحق فى شىء واحد لا علاقة له بالرسم والتصوير و الألوان. كانت تجيد فن المضاجعة والرهز واصطياد الرجال . والتعريس على

المتناكحين.

منذ دبر مراد صديق العائلة المغتربة لقاء فاتن بنادية للتخفيف عليها من آثار معركتها مع زوجها، وهما تسيران فى درب تعميق الصداقة الوليدة ، بتبادل الأسرار الخاصة جداً، كطريق أصيل لا يخيب إذا ما أرادت امرأتان أن تتصادقا بإخلاص.

قامت كاتمة الأسرار الفنانة بدورها على أكمل وجه، واست فاتن ودفعتها إلى التمرد الكامل، وأيقظت ثورتها التى كانت خامدة سنوات طويلة، فحزمت أمرها واجتازت ترددها وشكوكها، طلبت الطلاق وأصرت عليه، وهو رضخ بعد عامين من المناوشات والمعارك الصغيرة. كان انتصارها رائعاً وخيالياً، تكاد لا تصدقه، عززه أن أمها وإخوتها كانوا حريصين على استقرار الأسرة المغتربة. قاطعوها وهددوها وتركوها وحيدة. لكنها انتصرت. تشعر الآن أن بإمكانها أن تختار حياتها كما تريد تماماً ، لا كما أراد لها الآخرون، دائماً كانت تطيع، أمها، أبيها، أخيها، زوجها، لا طاعة لأحد بعد أن صارت حرة . ما بقى ليس قليلاً أبداً. مازالت جميلة أنيقة، "مرغوبة، مشتهاه من الجنس الملعون" كما تقول لها نادية وهى حانقة إلى حد ما.

فى أوائل الثمانينات، لا تذكر السنة تحديداً، أو لا تريد أن تذكر، تخرجت فاتن شهدى من كلية طب القصر العينى . ولم ترغب فى أن تعمل طبيبة بعد أن جربت ظلمة المستشفيات فى الليل، كان لديها تجربة تدريب غير سارة على الإطلاق، فى أكثر من مستشفى عام، دائماً، هناك طرقات طويلة مظلمة

يتصاعد من الحجرات على جانبيها أنين المرضى وتأوهاتهم وصرخاتهم، واستغاثاتهم التى لا ترتفع بهذا الشكل إلا فى الليل. ربما الصمت هو الذى يحفز الألم ، ويطلق سراح الأجساد المريضة التى تناضل من أجل احتمال العذاب. الظلام رحيم يسترالضعيف ولا يفضح الذين لا يتحملون ألمهم. بعيداً عن التمرجيات والممرضات اللاتى لا تتوقفن عن النهر والزجر ينطلق الألم من قمقمه المقفول، يدعون أجسادهم تعبر عن عطبها وفسادها وانهيارها. لم تستطع احتمال تأوهاتهم، وصراخهم لا يثير فيها سوى الفزع والخوف. كانت تشمئز من الدم والبول والملاءات القذرة والأجساد الشاحبة المريضة. ظلمة الردهات وحدها كانت تجعلها ترتعش.

كان المستشفى الذى بدأت فيه العمل كطبيبة امتياز عبارة عن بناء صغير أنيق من ثلاثة أدوار، مبنى له عيادة خارجية وحديقة صغيرة ومشرحة كبيرة . له ملامح محددة وسط عشوائية منازل وبنايات إمبابة الملقبة بالصين الشعبية. مستشفي عام من بقايا اهتمام الحكومة بصحة الشعب، يستقبل المرضى الذين لا يملكون الذهاب إلى العيادات الخاصة أو المستشفيات الاستثمارية التى ظهرت فى السبعينات وازدهرت فى الثمانينات.

لم تطق فاتن صحبة المرضى أبداً. مرضى رثو الثياب . فلاحون وحرفيون وباعة وعمال وسائقون يتحلون بأقصى درجة من الخزى والضعف . لا يأتون إلى المستشفي من أجل علاج نزلة برد شديدة . أو التهاب زائدة دودية أو حتى كسر فى الأيدى

أو الأرجل. إنهم لا يأتون إلا من أجل فشل كلوى كامل . تليّف في الكبد. انزلاق غضروفى فى العمود الفقارى . أزمة قلبية شديدة . مضاعفات بلهارسيا مضى على استقرارها فى الجسم عشرون عاماً . يأتون بعد أن تكون معظم أجهزة الجسم على وشك الفساد التام . وما بقى سليماً يعمل بنصف الكفاءة. نصف أو ثلث الحياة . وحين يوشكون على العطب النهائى وعلى بعد خطوتين من الموت يأتون إلى المستشفي لينهوا حيواتهم على أيدى أطباء امتياز يتدربون عليهم ويجربون فيهم . ليستقروا فى النهاية. جثثاً كاملة أو ناقصة الأعضاء. على أرفف المشرحة الكبيرة.

كانت فاتن طبيبة شابة ترتدى تحت البالطو الأبيض فستاناً ضيقاً مشجراً على الموضة . يبرز تحته تكوير نهديها. يعلو ركبتيها الممتلئتين اللامعتين بقليل. فتاة رشيقة الحركات ذات ابتسامة عذبة . تتفجر حيويةً ونشاطاً. تجرى بين حجرات المرضى والأطباء. وفى الطرقات والردهات المزدحمة . دائماً . بالجالسين والواقفين فى انتظار دورهم فى الكشف تظهر مثل زهرة فى خرابة.

اختارت تدريباً فى التخدير هرباً من التعامل المباشر الطويل مع المرضى. كانت تقول لنفسها يكفى تخدير مريض ثم الجرى من وجهه. لولا إصرار حبيبها . الذى صار زوجها فيما بعد. على ضرورة أن تعمل وتخوض تجربتها بنفسها ما قبلت هذا العمل. مالها هى وهذا الوباء . وهذه الوجوه . وهذه الروائح المقبضة التى تشمها فى كل زاوية وممر وحجرة فى المستشفى.

كانت الحياة صغيرة وجميلة . الكلية وحبيبها . أمها وأبيها والمنيل الهادىء. ليسوا أغنياءً ولكنهم ميسورون . أبوها مهندس استشارى كبير متقاعد . وأمها تجيد الادخار.

كانت لا تعرف كيف تستطيع أن تسلب أحد الناس إحساسه بالحياة . ولا كيف ترسله إلى نوم مقصود لا يشعر فيه بفتح جسده، وغرس أدوات الجراحة فيه ثم قفله مرة أخرى تمهيداً للعودة إلى الحياة. كان دكتور سعيد يقول لها أن تخدرى مريضاً معناه إما أن ترسليه إلى نوم من نوع خاص ويكون بإمكانك . بيدك أن تبعثيه مرة أخرى إلى الحياة . أو أن ترسليه إلى نوم طويل هادىء ومريح يُسمى الموت.

فى تلك الليلة كان الدكتور سعيد على موعد هام فى المطار. فكرت هى بأنه مازال وسيماً وأعزب . ربما سيستقبل امرأة أو فتاة. خدر المريضة الشابة ووضع فى فمها حبلاً طويلاً ملتوياً . وترك مهمة الفتح والتشريط للجراحين الذين بدأوا عملهم فوراً. قال لها انزعى هذا الحبل بعد أن ينتهى الجراحون . وخرج من غرفة العمليات. هرولت خلفه وهى مضطربة. لحقت به فى ممر جانبى . أمسكت بذراعه برفق فالتفت إليها :

" مالك يا فاتن ؟ "

" ممكن".

تلعثمت وضاع صوتها.

" أوكى.. لما أرجع ".

" بس.. "

تركها واختفى نازلاً السلالم قفزاً. جرت هى رجليها وعادت إلى حجرة العمليات.انتهى الجراحون . وخيطوا البطن . وخلعوا القفازات عن أيديهم وذهبوا جميعاً . وتركوها تمارس عملها. كانت المرة الأولى . ترددت قليلاً . بعد دقائق طويلة اقتربت من المريضة الممددة على طاولة العمليات بخطوات بطيئة . استجمعت شجاعتها . قابضة يديها فى قبضتين كملاكم . ونزعت الحبل الطويل من فمها . وانتظرت. انتظرت أن تفيق المريضة التى غابت ملامح وجهها عنها . انتظرت أن تتأوه . تحرك يديها أو ترفع رأسها.

ثلاث ساعات طويلة جداً مرت. لا تعرف كيف . وهى جالسة إلى جوارها. كانتا وحدهما. تحدق فى حدقتىّ عينيها. كان بؤبؤاهما مفزعاً . دائرة سوداء تتسع وتتسع حتى يكاد يغيب البياض . لحظات . ثم تعود عيناها إلى شكلها الأصلى.. وفى كل مرة تحدق فاتن فيها بذهول. غير قادرة على الصراخ أو طلب النجدة من أحد.

ظلت ترتعش وتثبت نفسها على الكرسى بيديها . وعيناها معلقتان بصدر المرأة الذى يرتفع وينخفض بانتظام . كانت تنتظر أن يتوقف عن الحركة . يهمد وتموت. سلمت بأنها ستموت بعد دقائق قليلة . ولكنها أفاقت بعد أن كادت فاتن تفقد وعيها من الرعب. خرجت من حجرة العمليات مقررة ألا تجرب هذا الرعب مرة أخرى . وألا ترسل أحداً إلى النوم أو الموت.

19

ذهبتُ أنا وفاتن إلى مرسم باسم فى الحرانية.

منذ عام ، تقريباً ، انتقل باسم من شقته في مصر الجديدة ليعيش فى مرسمه بالقرية بعيداً عن القاهرة وعنا.

كان ينتقم من الجميع بفرض عزلة شبه كاملة على نفسه بعد مصرع لمياء.

كانت وحدها فى سيارتها الصغيرة فى طريقها إلى الإسكندرية لتقضى أسبوعاً مع أمها.أخرجوها من بين صاج السقف والدواسات والحديد.و شظايا الزجاج على وجهها وملابسها. أخرجوها ميتة. جسد كبير سليم جميل للغاية برأس شبه مهشم . والدماء جافة، متجلطة على رقبتها ووجهها وشعرها الطويل. ارتطم رأسها بعجلة القيادة وسقط فوقها سقف السيارة . دهستها عربة نقل محملة بأسياخ حديد من الخلف . وقفزت على مؤخرة سيارتها وكادت

تسويها بالأرض.

نقل باسم بعض الأثاث القليل من شقته إلى المرسم . وقبع هناك كسلحفاة تحت صدفة. كنت أزوره أحياناً لأننى كنت أظن . بشكل ما . أنه وحيد هناك. يأكل . ويفرط فى الشراب. يرسم ويهذى ويتألم فى صمت مثل كلب جريح ملقى على رصيف أحد الشوارع الجانبية. وحده.

لم يكن باسم مغرماً بلمياء كثيراً . لكنها كانت فتاة رائعة الجمال بمقاييس باسم الجمالية. شعرها الذهبى طويل وطائش ينسدل على ظهرها حتى منبت ردفيها اللدنين. الطريين .اللذين يهتزان مع حركتها الرشيقة. عيناها خضراوان واسعتان . بصعوبة تكشفان أسىً رقيقاً مألوفاً عند أصدقائها. كان جسدها الأبيض ليِّنًا طريًا ينساب بنعومة ورقة فى شهوانية مدورة ملفوفة. لا سبيل إلى تجرعها إلا ببطء وعلى مهل.

إذا استبدلنا ببياضها المشرب بحمرة شفافة ذهبية أجساد محمود سعيد لصارت خارجة لتوها من إحدى لوحاته. ذات الجدائل الذهبية مثلاً . إلا أن لمياء ارتقت و تخلصت من سوقية العربدة و الشهوة و العنف. هكذا يمدحها باسم حين يعن له مغازلتها.

كان يتركها . ويُظهر للجميع أنه يتجول بين أصناف النساء غير مبالٍ بغيرتها المكشوفة . والتى تعبر لى عنها حانقة غاضبة "لجِّم صاحبك". "قوله عيب كده". "عقله يا

أحى هو مش صاحبك". هو كان يبدو مبتهجاً بإثارة غيرتها وغضبها. كثيراً ما يقول "حبها موت وهى غيرانة". ويُسر لى هامساً بأن الغيرة. الغيرة وحدها هى الحبل المتين الذى يضعه فى عنقها . لتبقى معه. كان يغازل مىّ أمامها . وأمام عينى "غزلاً صريحاً " غير برىء بالمرة. كنت واثقاً من نفسى أيامها . أريد أن أتخلص من مىّ . أريدها أن تذهب للفراش مع باسم. أو كنت أحس ميول باسم الحقيقية. لا أعرف.

لمياء كانت تكتفى بإخفاء ما بها تحت رموش عينيها الطويلة. وتسكت. وحين يفيض بها تذهب إلى أمها . وبعد أيام تعود. تأخذ باسم فى حضنها الدافىء. وهو يبكى. ويشتكى مما قاساه فى غيبتها عنه. ويشتمها ويلعن أمها وأبيها.

كنت أتوقع أنها سترحل عنه يوماً ما. بهدوء. بلا ضوضاء أو صخب أو حتى مشاجرة صغيرة. تحمل حقيبة ملابسها وجيتارها وتلقى بهما فى سيارتها و تمضى. ولا تعود هذه المرة. باسم ليس ممن يثيرون الجلبة لفقدانهم زوجاتهم. إنه يتشاجر فقط. حين تعود وحدها. كان سيقول "بسيطة بسيطة افعلى ما ترغبين فيه. ما تريدين إن كنتِ متأكدة أنكِ لا تريدينني". لو سمعته يقول لها ذلك وهو يضغط على الحروف بطريقته عندما يريد أن يؤكد أنه يعنى ما يقوله تماماً. لم تكن لتهجره أبداً.

ذات ليلة. كنت سأبيت عندهما. بعد انفضاض السهرة وذهاب نعمان و أكرم ومىّ وآخرين. كان باسم قد نام فى مكانه على الأريكة ورأسه فى حجر لمياء. هى كانت جالسة فى طرف

الكنبة ويدها على شعره الكثيف الناعم، تشمله بنظرة أمومية، تقريباً.

قالت وهى لا ترفع عينيها عن وجهه :

" أنت غبى وحمار كبير.. مش هتفهم ".

" مش فاهم فعلاً ".

أبداً ، ربما حتى هذا اليوم . لا أفهم سرها مع باسم. باسم الرقيق العذب فى جماله شبه الأنثوي.كان قصيراً ، أقصر منها بنحو عشر سنتيمترات ، نحيفاً ، ومن وجهه المدور النضر يفيض نور خافت ضعيف يزداد حين يسلط عينيه على الآخرين. عيناه عسليتان كبيرتان.

"الوجه.. الوجه هو كل شىء فى الرجل ؟!"

"أنت ، قلت لك ، أنت حمار أو لأنك مصور لا ترى فى الناس غير وجوههم.. أوه ، تقصد الجسم، الكتفين والذراعين والصدر العريض..و.. "

ضحكت ضحكة ماجنة هائلة

" تقصد العضو يعنى ؟! "

"مثلاً "

"مين الست الغبية اللى فهمتك إن الرجل عبارة عن عضو كبير ! "

" أنتِ مش مهتمة ؟ "

" أوه . طبعاً . أنا أهتم به جداً . للغاية .ولكن الرجل قبل أى شىء آخر ليس سوى طفل يا ابنى.. "

كانت نبرة صوتها حزينة قليلاً .

لم أصدقها . ولم أفهم. كانت تبدو لى هى نفسها . بسبب نفسها لا بسبب وجود باسم فى حياتها . أنثى ممتلئة بمتعة نرجسية خالصة ليست لها صلة بإغواء رجل ما . لم تكن تحتاج شخصاً زائداً عن ذاتها . ربما كانت تحتقر الذكر والجنس فاختارت أقرب الأشكال الذكورية إلى جنسها . وإلى فرديتها الخاصة. اختارت باسم للرفقة والصحبة.ولا شىء أكثر. وهاهى قد غادرته بأكثر الطرق بساطة وهدوءاً وأقلها إيلاماً!. قُتلت خطأً فى حادث غير مقصود.

غير مقصود. غير مفهوم . عبث. عبث.

باسم تحول بعد مقتلها إلى شخص غريب. ربما غريب مثلى أنا تماماً.

شخص غارق فى التفكير فى كل شىء .فى حروبنا وهزائمنا وجوعنا. غارق فى التفكير فى الجميع لدرجة تجعله فى النهاية محدوداً تماماً بحدود ذاته. لا يدخله نفس من أى كائن آخر. على حد تعبيره. شخص فرض على نفسه العزلة عن الاتصال بالكون الحىّ. كان يحب. قبل أى شىء آخر . الفن والسينما والكتب. صار أنانياً و نرجسياً . تماماً مثل الفنانين الذين كان

يتهكم عليهم دائماً . يسبهم ويلعنهم و يرجو أن تتاح له الفرصة والشجاعة للبصق فى وجوههم جميعاً.

أخذنى من يدى وفاتن تراقبنا لأرى لوحاته الجديدة. انظر كيف خلقت هذا و انظر كم هو رائع هذا اللون . هل فهمت هذا التكنيك الجديد على أعمالى. هذه مرحلة جديدة من مراحل تطورى. المرحلة الأعظم. خد بالك من الملامس العجيبة التى صنعتها هنا. و الكتلة هنا وعلاقتها بالفراغ. لا تكن ساذجاً وتحيل ما فى اللوحة إلى الواقع الخارجى. ليس هذا الموجود على سطح القماش وجه لمياء. هذا ليس بورتريه. هذه الوان. ألوان وقماش وملامس وروح تتجلى. روحى أنا.

كنت أنصت إليه و فاتن مسلوبة تماماً . تحاول أن تتابعنا. لكنها الذاكرة المعطوبة. عيوب ذاكرتها تمنعها. أحياناً من التفكير المجرد والتركيب العقلى. كما تقول. كلما أرادت أن تدعى الحماقة. أو لتُظهر احتقارها لما يُقال. ذهبتُ إلى طبيب نفسى أحالها إلى طبيب مخ وأعصاب. أخبرها بعد أن أجرى لها بعض الأشعة والفحوص أنه لا خوف. لاشىء كثير. بعض القصور فى الذاكرة . قصور خفيف . وهى أعجبها هذه الإمكانية الهائلة للتملص من كل شىء لا تريده. بدعوى "آسفة لا أذكر" .

لم يكن باسم يحاول استمالة فاتن . على العكس. كان يعاملها باحتقار نوعاً ما . لكن صمتها . وعينيها المشدوهتين المحملقتين فى لوحاته . وتأملها الطويل لوجه لمياء جعله يمتلىء زهواً صغيراً بنفسه. باسم كان فناناً إلى درجة أنه كان لا

يطيق أن أنطق باسم أحدهم أمامه ولوعرضاً. قلت يومها، إننى ما زلت أميل إلى فان جوخ. كل مرة أتأمل فيها لوحتىّ "الحذاء". و"الغرفة" أندهش، وأرى فى فراغهما من البشر، وجه الرجل المجنون الذى رسم المكان والأشياء، وقطع أذنه. وانتحر. برقت عيناه واتسعتا وهو يتمتم طبعاً إنه رائع فعلاً. لكن انظر، انظر إلى الألوان هنا. هذه روح جديدة تماماً، لم تأت من قبل إلى اللوحات. انظر. انظر. حتى ما عدت قادراً على رؤية المزبد من إنتاجه الذى تضخم فى الشهور القليلة الأخيرة. تعبت. فجلست على الحصير القش مستنداً بظهرى إلى الحيط فارداً قدمىّ ونركته يواصل. بمتعة كبيرة، عرض لوحاته على فاتن التى كانت لا تزال مندهشة و مشدوهة.

صعدنا إلى سطح البيت الصغير حيث عشة الفراخ والأرانب وبرج حمام صغير من الطين متهدم وفارغ. أخذ باسم يتكلم عن الفراخ البلدية و طعمها، و الخضروات و الفاكهة الطازجة، التى كان لا يعرفها فى مصر الجديدة. وكنت أتفرج على الحقول والأشجار فى ضوء ما قبل الغروب. كانت السماء صافية، بسحب بيضاء صغيرة لا تنذر برياح الخماسين. وكنت أسخر من نفسى لإحساسى بالراحة هنا، مثل فلاح مغترب فى المدينة يعود إلى قريته فجأة.

ونحن نأكل فراخ باسم البلدية التى طبخها بمهارته المعهودة. جاء شاب خجول أومأ إلينا، وابتسم. فقام إليه باسم. قبّله قبلة سريعة خاطفة على شفتيه. وقال إنه حسنى صديقه الذى يعمل مدرساً للرسم بالقرية.

بدا لى أنهما متفاهمان إلى حد كبير . حتى إن جسديهما كانا فى نفس الحجم تقريباً. لم يكن باسم . هذه المرة . مهوش الشعر . نابت الذقن كما رأيته حين جئت وحدى منذ شهرين. كانت أوداجه متوردة . وشعره مصفف بعناية. أنيق فى جلبابه الأبيض النظيف. لم يعد باسم وحيداً هنا. ها هو قد استطاع أن يعبر أخيراً . بعد شهور طويلة كئيبة. ربما كانت لمياء هى التى تربط قدميه إلى سريرها الهادئ الخامل البرئ. كان يبدو سعيداً باكتشافاته الجديدة. صار كل شئ فيه يؤكد ذاته بإصرار . إلى حد الصلف. لم يعد شخصاً غامضاً يُخفى نفسه طيلة الوقت . ويرتعش خائفاً من تهكمات وسخريات نعمان. أراهن أنه لديه الآن القدرة الكاملة على لكم وجه نعمان إلى حد تكسير سنتيه البارزتين فى فكه العلوى.

ونحن عائدون إلى القاهرة . قالت فاتن إن باسم كان يحب لمياء حباً عميقاً.

يجوز . على الرغم من أننى لست متأكداً أبداً من معنى كلمة " يحب " هذه. أبداً.

20

تعرفين.. أنا لستُ براوٍ أوحكّاء. الكلمات عدو من أعدائى. الكلمات عدو حقيقى قوى وعنيد. هل أستطيع مثلاً . أن أقول مثلما يقولون.. "اسمع.. أنا أحبها . أعشقها . هل تفهم ؟"

إن الكلمات الأكثر ابتذالاً من قبيل : الحب . الغرام . الهوى. العشق... ألخ مجرد أصوات تخرج من الحنجرة والأحبال الصوتية واللسان والشفتين. أصوات مبهمة . قاصرة . عاجزة . مكررة . لا تقول شيئاً . لا معنى لها . ولا دلالة . ولا غاية. أصوات لا شىء. ولكن ماذا يمكننى أن أفعل . أنا الذى لا أهوى الكتب والقصص للأسباب نفسها . ولا أجد ضرورة للتعبير بالكلام.

ماذا أفعل إن أردت أن أصف حالى وأنا إلى جوارها . أنظر إليها وأفكر فيها. كأنها ليست إلى جوارى تقود السيارة وتتكلم وتضحك ، وأنا شارد. ما يدور برأسى هو خوفى من البله والحمق والجنون. خوفى من الخوف. خوفى من العجز. عجز يدى

عن الامتلاك . عجزى عمّا يسمونه " الحب ".

كنا . أنا وهى ممدديْن على ظهرينا. نتقاسم السرير الكبير. بين جسدينا شبر واحد. كنا متعبين . غافيين بملابسنا وأحذيتنا كما دخلنا. تتردد أنفاسنا بنفس الإيقاع . شهيق متمهل طويل وزفير بطىء عميق. تمرين اليوجا الوحيد الذى أفلحت فى تعلمه منها. توقفت عن الانتظام فى التمرين قبلها . وأنا اشعر بلذة نعاس طفولية . أترقب هذه اللحظة . لحظة الصوت الذى يأتى ليسكننى ويصعقنى كلما رقدت إلى جوارها . هكذا . على هذا الحال . قريباً جدًا من أنفاسها وجلدها ولحمها رأسها وصدرها وبطنها وفخذيها وقدميها . ورائحة جسدها الطبيعية . رائحة لبن رائب خفيفة . دافئة ونقية. أتحرك . أصير مضطجعاً على جنبى الأيسر وأحضنها فى ظلام الغرفة وانغلاق عينىّ فتعطينى صدرها وجسمها. أنزل لأسفل ببطء ليصير رأسى بين مفرق نهديها . أحس دفء لحمها وطراوته . الحرارة والنعومة واللين . أصير كلى خلايا جلدية للمس . أرهف عيون أصابعى وأطلقها تأكل نعومة جلدها . له طعم النبيذ الأبيض. أمكث طويلاً بين نهديها المكتنزين ووجهى مدفون بينهما. ألعقها بشفتىّ ولسانى. تقريباً بلا صوت . حتى أغفو و يداها على ظهرى. أغفو رائقاً آمناً . محمولاً خارج خشونتى وثقلى وبطئى . بعيداً . بعيداً عن غلظتى وجلافتى وفحولتى.

لا أعرف كم مضى من الوقت. صحوت . فتحت عينىّ ونظرت إليها أتأمل وجهها الصافى الرائق فى نعاسه اللذيذ.

رأيتُ شعرة طويلة ذهبية ساقطة على كتف بلوزتها البيضاء. شعرة مصبوغة بالحنة. التقطتها بأطراف أصابعى ورحت أفحصها. أخرجت حافظة نقودى الجلدية من جيب بنطلونى الخلفى . تخيرت جيباً فارغاً فيها . ولففت الشعرة بحرص . كنت على وشك حفظها حين فتحت عينيها ونظرت إلى الشعرة بين أصابعى. ابتسمت ولمعت عيناها. تلمع عيناها عندما تبتسم من قلبها. برفق شدت شعرة من رأسها . انتقتها بعناية . وقالت وهى تمدها نحوى:

" لا.. خد دى "

كانت شعرة قصيرة سوداء لا أثر للحنة فيها ولا للبياض.

قالت مبتهجة :

" دى لسه سوده . مش محنية ".

وضعتُ الشعرتين الاثنتين معاً . معاً . متجاورتيْن فى جيب حافظة نقودى الوحيدة الموضوعة دوماً فى جيب بنطلونى . كى أذّكر نفسى . حين ينتابنى السخط لاختيارى الغبى لامرأة تقترب من الخمسين . أذكر نفسى كثيراً. بأنه لا يزال هناك الكثير من الشعر فى رأسها لا يحتاج للحنة والصبغ . وبأنها صبغت الكثير من الشعر أيضاً . وبأنهما معاً . شعرها غير المصبوغ وشعرها المصبوغ . عزيزان علىّ.

21

كنت أعرف أنها لن تغفر لى مطلقاً هذا البرود. ربما أنا، وحدى، الذى كنت أحسبه بروداً مخزياً . ووقحاً.

كانت عاطفيتى القديمة المنسية، والتى عاماً وراء عام كنت أقتطع منها أجزاءً صغيرة وألقيها فى سلة القاذورات المخجلة، قد تحولت إلى ظمأ جارف لاحتضانها، مداعبة وجهها بأناملى، وتحت ملامحها بأصابعى، تقبيل باطن يديها، والتربيت على ظهرها كطفل يهدهد أمه. أضع كفى على خديها، أحتويها وأتأملها غير مصدق أنها بين يدىّ. أمرر أصابعى على وجهها ببطء شديد، أسوى شعرها وألفه بين يدىّ برقة. أُقبل ناصيتها الصلبة البارزة قليلاً. أضع رأسى على نهديها، وأغمض عينىّ. لا أفكر فى شىء، وأغالب دموعى لئلا تطفر من عينى أمامها.

كنتُ فرحاً وحزيناً وليست بى رغبة.

أنكر نفسى. وما أفعل. هل أنا ممدد فعلاً على صدرها. ويداها تداعب وجهى وشعرى ؟

أخشى أن أضجرها . وأغضبها. أخشى أن تسخر من بذاءاتى. وكسلى . وخمولى...

بعد دقائق طويلة . قطعت الصمت وقالت بإغواء مكشوف :

" آيه . بالظبط . اللى مش عاجبك فيّه ؟ "

عز علىّ أن تفكر فى عيبها هى لا عيوبى أنا. كانت رغبتها قد تجمعت فى نظرة عينيها إلى جسدى العارى. لم أستطع أن أخبرها . وأنا أدفع من رأسى منظر عانتها البيضاء. اتنترت من حجرها . ووضعت وجهى فى وجهها

" كلك على بعضك عجبانى ".

قبلتُ رأسها وخديها. أستطيع . ولا أريد الآن. ما آخذه كاف. بل فادح وكثير وفائض عن حاجتى. وما تحصل عليه هى الآن يصيبها بالإحباط . والسخط.

قامت. ارتدت بنطلونها الجينز الأزرق . وبلوزتها البيضاء. تبدو مثل عاملة فى مصنع ملابس. قلت لها . فضحكت على الرغم من غضبها الذى حاولت إخفاءه بإصرار. أنا أعجبتنى اللعبة . ظللت على السرير عارياً تماماً. المرأة الوحيدة التى لم أخجل من عريى أمامها. كنت مرتاحاً هكذا . مشغولاً بنفسى . ولا أريدها أن تنصرف الآن. قلت لها إن لاعبى السومو فى

اليابان السمينين جداً يتصارعون وهم شبه عراة . فقط حزام من القماش يستر عوراتهم " هل تلاعبيننى ؟ "

قالت محتجة :

" اللهّ.. بس أنا لبست هدومى ".

" بسيطة . إقلعى ".

" لا.. لا مافيش وقت ".

" وراكى آيه ؟ "

تعلقت بها . ووضعت يدى حول خصرها. أبعدت يدى بلطف.

" لازم أجيب هاجر من عند صاحبتها ".

لا أعرف ما الذى أغاظنى و أثار حنقى عند ذكر ابنتها.

ذهبتُ إلى الحمام ووضعت رأسى تحت تيار الماء المتدفق من الحنفية التى فتحتها إلى آخرها. لم يبترد رأسى . وظل حنقى مرعباً.

كنت أراقب انفعالاتى جيداً . تمرين قديم كنت أقوم به أحياناً لالتماس معرفة أعمق بنفسى. أصير شخصيْن . خاصة فى مثل هذه المواقف التى يدهشنى انفعالى فيها . أدع نفسى أفعل ما أريد تماماً . أدع نفسى أراني وأنا أفعل . وأنا أغضب وأحنق وأنفجر ثم أبحث عما جعلنى أكون على هذا

النحو. حالة قلقة متوترة تصيبنى بالإرهاق الشديد. طيلة الوقت لا أستطيع أن أكون على راحتى . على سجيتى ، على طبيعتى . هذا هو السؤال ! عن أى طبيعة أتحدث ؟

عدتُ إلى غرفة النوم. لم أجدها. كان السرير فى فوضاه المعتادة . والمخدات متناثرة على الأرض . الملاءة مكرمشة تظهر تحتها نتف القطن من قطع صغير فى المرتبة.

بعد ثلاث ساعات عادت فاتن وقد غيرت ملابسها . وارتدت فستان بنفسجى بزهور وردية صغيرة يعلو ركبتيها قليلاً . وجوارب شيفون سوداء . بدت امرأة ناضجة تخطت الثلاثين. ذات حضور أنثوى متوهج ورزين.

كنت أعد العشاء. أحياناً أحب طبخ صينية بطاطس بالفراخ. جلسنا نأكل. جلست إلى جوارى . ترددت قليلاً وهى تلتقط قطعة لحم . ثم وضعتها فى فمى . أكلتها. صارت لا تأكل . وتطعمنى بيدها . وتلاعبنى وتضحك.

" هَمْ.. هم هم يا جمل ".

والجمل كان يخبط الأرض بقدمه . ويأكل . ويضحك من أعماق قلبه.

" تانى تانى ".

" هم.. هم يا جمل ".

لم أكن أريد أن أنتهى من الأكل بهذه الطريقة بسرعة.

أكلت كثيراً جداً . وامتلأتُ بلذة كسولة. أسلط بصرى عليها وهى تمضى إلى المطبخ . تتحرك بألفة وتلقائية كأنها كانت هنا معى منذ سنوات طويلة. أحس أنها امرأتى. امرأتى. إنها هنا لأن هذا عادى وطبيعى جداً . إنها فى المكان الذى يجب أن تكون فيه . غيابها هو العارض . والمؤقت. كانت هنا معى . وستبقى.

أنتظرها أن تأتى. أن تضع يدها على شعرى وتبتسم وتروح تحكى عما حدث فى الثلاث ساعات التى تركتنى فيها. حينما جاءت من المطبخ فعلت. وضعت يدها على شعرى . فأجلستها فى حجرى . وراحت تحكى. أحب طريقتها فى الكلام . نبرة السخرية شبه الدائمة والتوقفات المفاجئة . كأنها تفكر بعد أن تتكلم لا قبل الجملة التى تلفظها بعضوية ورعونة. أطرب حين تنطق اسمى . وهى تذكره كل جملتين . كأنما لتذكرنى بأنها هى أيضاً تحب أن أذكر اسمها كثيراً. أتملص من ذلك . أريد أن أسمعها أطول وقت ممكن . لا أريد أن أذهب بها إلى... فأخذتها إلى حيث أرويها وأشبعها . وأزيل عنها صدأ سنوات بائسة طويلة.

أضاجعها مرة. ومرة أخرى . وثالثة . ورابعة . حتى إذا خرجت إلى الشارع سرت . وأنا أترنح قليلاً مسطولاً ومنتشياً. ركبتاى تصطكان الواحدة بالأخرى . ورأسى فارغ من كل شىء. هادىء وبطىء أسير فى الشوارع بلا هدف . بوجه رائق مثل وجوه الأطفال والملائكة . نفسى ممتلئة.. بل تفيض وجسدى خفيف . مروى . شبعان . ولا أحد يعرف سر فرحى.

22

منذ استولى مأمون عطا اللّه على الشقة . وطردنى منها . لم أعد إلى هذا البيت أبداً. ولا مرة رجعت إلى بيت طفولتى وصباى. بيت أبى وأمى. لعله الآن قد ازدحم بالأثاث . والأطفال. وصور مأمون الفوتوغرافية المعلقة على الحيطان فى بزته العسكرية . منذ كان ملازماً صغيراً بالجيش وحتى صار الآن يحمل رتبة الرائد. عشر سنوات تفصل بين عمرينا . ربما لهذا لم نكن أصدقاءً فى أى وقت من الأوقات. كان مغرماً بإصدار الأوامر إلىّ : قف . أقعد . لا تلعب . اكنس الشقة . تعال . اذهب لشراء السجائر. اصنع الشاى والسندوتشات لأصدقائى . اذهب بالبدلة إلى المكوجى . امسح البلاط.

كان يحب الصور . وحين يريد أن ألتقط له صورة يقول عرضاً بلا مبالاة وهو يهرش رأسه :" صورنى".

هذه هى اللحظة التى أترقبها بشغف شديد. أشعر أننى الشخص الأقوى فى هذا البيت. أكثر قوة حتى من مأمون .

حلم العائلة فى السلطة والنفوذ. الحالة الوحيدة التى أستطيع فيها أنا أن آمره . وأصدر إليه تعليماتى بلهجة متغطرسة قاطعة . أقلده فى صلفه وغروره . أستطيع . حتى أن أشوح بيدى فى وجهه غاضباً من حماقته. آمره . حرك كرسيك إلى اليمين قليلاً . فيمتثل.. لا لا هذا لا يعجبنى . حرّكه بعيداً عن الحيط.. إلى الأمام.. لا. لا . أقول لك عد إلى موقعك الأول مرة أخرى. قف . قف منتصباً. شد جسمك بقوة . ضع يدك تحت ذقنك . لا. لا . أنت لست ممثلاً حتى تزهو بجمالك هكذا. يغضب ويقطب جبينه ويتوعدنى بالضرب بحركة من يده. أقول ببرود. شكلك جاد وغاضب أكثر من اللازم . هذا لا ينفع. ثم أقول جاداً وساخراً ابتسم . ابتسم من فضلك للكاميرا. يبتسم ابتسامة باهتة شاحبة.

كان يحاول اللعب بى وبمن سيعرض عليه صورته . ويجاهد ليخرج من ذاته الصورة التى يجب أن يراه عليها الآخرون. بينما أوجه له أنا أوامرى كان يحاول أن يستدعى صورته المثالية ويقويها. يدرك أهمية أن يدمر رؤيتى له كعسكرى مغرور وصلف. كان يعاند ما يظهر على وجهه من تسلط وكبر ورغبة عارمة فى قهر الآخرين. أنا لا أترك نفسى أنساق لتمثيله السىء وألعابه . لا ألتقط وجهه إلا فى اللحظة التى أرى أن وجهه يتطابق فيها مع نفسه. عندما يتطابق وجه مأمون مع ما يسميه الناس روح مأمون. أعنى أنها تلك اللحظة الفريدة النادرة . والتى لا تتكرر كثيراً . التى يحدث فيها أن يتطابق المرئى مع الخفى . الظاهر مع الباطن.. المظهر والجوهر . ربما . ربما هذا ما أحاول وصفه . ما أعنيه أننى كنت أحاول أن أفضح حقيقة

مأمون باستخدام الكاميرا.

الآن . أعرف ما كان يعرفه هو ويتصرف وفقاً له وهو أمامى مستسلم لإرادتى والتى. المصورون هم الذين يكوِّنون . بدرجة ما . أفكار الناس عن القادة السياسيين ونجوم السينما . والمجتمع والرياضة والمشاهير . وكل من له علاقة بالظهور العام. نحن كهنة الضوء والظلمة. نحن الذين بإمكاننا أن نفسر بعض ألغاز الكون المعقد. أنا نفسى لا أستطيع سوى قراءة القليل فى كتاب الطبيعة والحياة المليىء بالألغاز اللانهائية . وأمارس المفارقة الوجودية الأساسية الخاصة بعملى . الصور التى تلتقط فى الضوء يجب أن يتم تحميضها فى الحجرات شاحبة الضوء . المليئة بالظلمة.

كم صورة التقطتها له فى حالات وأوضاع وأوقات مختلفة . عشرين . ثلاثين . ربما أكثر من مائة صورة. ليس لدىَّ منها الآن واحدة. كان ذلك مرتبطاً بمزاجه وتطور قدرتى على مواجهته. كنت أخشاه . وأخاف من نظراته الغاضبة وصمته . لم يضربنى أبداً. كان ذكياً وشريراً لدرجة أنه كان يجعلنى أتوقع فى كل لحظة أن ينتفض من مكانه وسكونه وينهال علىّ ضرباً. ربما حتى اليوم أخشى أن يظهر فى حياتى فجأة ويوقظ خوفى ورعبى القديم منه.

كانت مرات قليلة تلك التى استطاع فيها أن يفلت من مهاراتى. وظهر فى الصور كشخص يحتوى فى ذاته على قوة حقيقية منبعها عقل عظيم. لا أعرف ماذا يعنى لفظ القلب بالنسبة له. كان يكتسب مظهر قائد وقور له عقل . فقط.

المرات التى انتصرت فيها أنا كان يظهر كديكتاتورًا صغيرًا حسن النية . كمخادع كبير على وشك النطق بالأكاذيب والأوهام.

مأمون ابن أمى وأبى مر زمن طويل دون أن أراك . ألا تحب أن ألتقط لك الصور الآن بعد أن صرت قائداً عسكرياً وصاحب زوجة وعيال. على الأقل . لا أستطيع أن أنكر أنك كنت أيقونه صباى ومراهقتى. كنت أحب الباريه الزيتى الذى تضعه على رأسك وبدلتك الكاكى النظيفة . آتى بها كل أسبوع من عند عم رجب المكوجى. أتأمل وجهك الأسمر بالأنف الأقنى الكبير والعينين السوداوين الواسعتين . كنت تطفر بالصحة والقوة والتصميم.

مأمون. مأمون لم يعد شقيقى منذ زمن طويل. طويل.

23

بعد ستة عشر عاماً من أول صورة ألتقطها بكاميرا أكاد أعرف اليوم. أعرف أن البورترية الفوتوغرافى لا يحتمل المجاملة واللياقة الاجتماعية والكذب. مرات كثيرة ألحت علىّ فاتن أن ألتقط لها صورة. كنت أتهرب بخفة. أخترع الأعذار مصراً على الفرار من هذا الشَرَك.

كانت تتقافز فوق السرير . وهى فى قميص نومها الأخضر الطويل. تضرب المرتبة الإسفنج بقدميها مثل طفلة غاضبة وتصرخ " لازم.. لازم تصورنى ".

فى قفزة واحدة طويلة من السرير إلى المكتب تصبح واقفة فوقه. تدبدب عليه. تمسك بالياشكا بين يديها. تأتينى بها. تضعها فى يدى. وتضرب رأسى بيدها ضاحكة.

وَضْع شخص أمام عدسة كاميرا يعنى لى الآن أن أقوم بعمل جاف وبليد. يعنى أن تصير الكاميرا آلة طحن. ماكينة

هائلة الضخامة ذات ترس حديدى كبير يدور، ويدور بسرعة الضوء فارماً فى وجهه كل ما يُلقى إليه. آلة خرافية تسحق كل شىء دون هوادة. دون أن يهتز قلبها الحديد، وقد تقتل فى عملها البارد أباً أو أماً، عاشقاً أو عاشقة.. أو قد تقتلك أنت.

أنتِ لا تعرفين. إنها لا تنحرف عن غايتها المحتومة قيد أنملة كما يقال. لا تنحرف ولا لمليمتر واحد.

أجلستها فى حجرى، ووضعت يدى على ظهرها. قبّلت خدها قبلة صغيرة، ورحت أتكلم. أريدها أن تفهم عمل هذه الآلة وعملى.

عندما أرفع ذراعى الأيمن لأحضن جسدها المستطيل، وأنزل بنصف جسمى العلوى ووجهى لأضع عينى اليسرى على عدستها أشعر فى الحال بالرضوخ لها، بأننى، أنا، لم أعد سوى جزءٍ من جسمها، معدنها وزجاجها وقلبها الأسود. استسلم لما تراه هى، لواقعها الذى تعده ببراعتها الناضجة المكتملة. لم تعد ساذجة كما كانت فى طفولتها البريئة. كانت تعكس ما تراه كما تراه، بصدق وأمانة وبأدنى درجة من درجات التدخل. كانت تشبه إلى حد كبير ماكينة تصوير المستندات المحايدة، التى تعطى صورة طبق الأصل. لم تعد بهذه الرأفة والطيبة والبراءة.

فى سنوات صباها الغض كانت ماكرة للغاية تحجب عن المشاهد ما تراه أمامها وتضفى على البؤس والقبح جمالاً. كان بإمكانها، بقليل من التمويه والرتوش أن تجعل من الأعور

مفتحاً. كانت تجعل المذيعة النحيلة ذات الوجه المجدور السقيم امرأة جميلة ذات وجه بيضاوى نضر . وردى وناعم. كانت تفعل ذلك بفاعلية ومهارة وشقاوة. الآن . فى سنوات نضجها ونبوتها وقد تخطت مرحلة الشباب المتوهج . وفقدت مظهر الأسطورة . صارت نصّابة محترفة . وساحرة فى سيرك تتظاهر بأن ما تقدمه ليس سوى الواقع. صارت تطمس حقيقة أنها تلعب . أنها تحجب . تراوغ . تصفى وتستبعد وتقتل. صارت محترفة هادئة الأعصاب باردة القلب تصطنع عالماً وهمياً ببساطة وبراءة وإتقان مبهر.

رائعة. رائعة. هل تستطيعين . يا فاتن . أن تصدقى أن هذه الضربة القاضية التى أسقطت الملاكم الضخم القوى على أرض الحلبة. وكأنه جوال قطن. هى ضربة يد عادية. يد عادية مثل يدى ويدك. يد ليست لها قوة استثنائية خارقة . إنها ضربة بسيطة فائقة القوة والسرعة إلى حد أنها بدت وكأنها ضربة عادية.. عادية للغاية وبسيطة.

ما تفعله الكاميرا ليس أقل من سحر أسود.

اتسعت عينا فاتن. ربما كانت . فقط . تجارى خيالاتى . فواصلتُ بحماس.

فى المرحلة الحالية لم تعد الكاميرا تحتاج لأية علاقة بالواقع أياً كان شكل هذا الواقع . لا تريد إظهاره ولا حجبه ولا حتى إيهامنا بوجوده. إنها فقط تختال بذاتها . بجمالها . وقوتها وخصوبتها . ونرجسيتها. هى غاية ذاتها . الوسيلة

هى الغاية هى الرسالة. إنها لا تعبر عن وجود آخر سواها . وجودها فحسب. إلهة تفرض سطوتها على عالم الميديا. إلهة واحدة تعرف كل شىء . ولا يعرف عنها أحد شيئاً.

سكتُ. فصمتت برهة ثم انفجرت فى موجة ضحك.

" يا عم . ولا يهمك. ما تزعلش نفسك قوى كده . قوم . قوم صورنى أحسن لك ". وصارت تضرب رأسى بكلتا يديها. رضخت لها غاضباً قليلاً.

اخترت الحائط الأبيض كخلفية . أوقفتها أمامه . وابتعدت عنها خطوات قليلة . أمسكتُ الكاميرا بين يدىّ كمن يمسك بندقية. سوت خصلات شعرها المجعد وفتحت فمها إلى آخره وأخرجت لسانها الأحمر العريض. وومضت عيناها بمكر شرير. التقطت وجهها فقط وجزء صغير من الرقبة التى لم أرد أن تظهر فى الصورة.

كان وجهها غاضباً . ولسانها خارج فمها.كانت تتعمد السخرية منى ومن العالم . إلا أن ما فعلتُ لن يعجبها أبداً حين تراه. وقد تحول لشىء أشد سخرية من سخريتها البريئة . الساذجة.

24

اتهمتنى بأننى . أنا . الذى أراها على النحو الذى ظهرت فيه فى الصورة الفوتوغرافية. وجه شاحب كثير الغضون بعينين ضيقتين غبيتين . وحاجبين رفيعين مرسومين بالكحل. وجه عجوز تتصابى بمرح طفولى يثير التقزز.

ألم ألتقط أنا الصورة ؟!

صرخت مرعوبة بعد تأمل وصمت طويل :

" إف إف.. إف إف "

رمت الصورة فى وجهى فسقطت على الأرض . ورمت إصبع الموز الذى قضمت منه قضمة صغيرة على الطاولة وهرولت خارجة من المطعم. صفقت الباب الزجاجى خلفها بقوة. تلفت حولى موزعاً ابتسامات خيبة على الزبائن المصريين والأجانب الذين رأوا ما فعلتُ. بادلونى ابتسامات معناها أننى شخص صفيق. أكملت أكلى بشهية وطلبت من النادلة

السمينة ذات الوجه الضاحك زجاجة بيرة. قالت :

" إنت الغلطان . تستاهل ".

" شكراً يا بطة ".

لم يُجد ما شرحت لها شيئاً. كالعادة . عندما تغضب مني لسبب تافه تخاصمني . وتتوعدني بهجري نهائياً. أكاد أوقن أنها تلعب بي فقط. تهاجمني لرتق جرح كبريائها وغرورها وزهوها بجمالها. كثيراً ما تجد حلولاً سريعة لثقب بالون غضبها.

كيف أداوي صدمتي أنا. ما فعلته كان بيدي وعلى عيني. جبني وخوفي أن أغضبها جعلني أرتكب حماقة صغيرة . ولكنها مدوية تزلزلني. لا أستطيع أن أقول . ببساطة . كما تقول هي مشمئزة حين لا يعجبها شيء " إف إف ".

" إف إف إف ".

25

كنت أنتظرها ؟

أتجول فى أرجاء الشقة الضيقة مثل دب محبوس فى قفص حديدى صغير. فى قبضة يدى تليفونى المحمول الكبير ماركة إريكسون ٦٨٨. كنت أنظر إلى الساعة على شاشته الصغيرة مرات متتابعة كل ثلاث دقائق . كل خمس . كل دقيقتين. تأخرت عن موعدها خمس دقائق . سبع . عشر.. خرجت إلى البلكونة أرقب آخر الشارع . ضوء ضعيف ينبعث من عمود إنارة قديم يتجمع حول لمبته الناموس. كان باستطاعتى رؤية القادم بصعوبة. لكنى أعرف نوع حضورها فى المكان . رائحتها ومشيتها . طولها وعرضها. أستطيع أن أشعر بوجودها على مقربة منى قبل أن تظهر بدقائق. لم يكن من الصعب علىَّ أن أعرف أنها هى التى تقف خلف شراعة بابى تنتظر أن أفتح لها . ولم تكن تندهش حين تباغتنى فجأة وأنا جالس وحدى فى المقهى حين أقول لها إنها كانت ستذهب

لتمرين اليوجا ولم ترغب فى اللحظة الأخيرة. كنت أعرف حضورها فى دائرة وجودى . هى كانت تسميه نوع من التواصل الروحي . وأنا أسميه توقع . حدس بدائى به يعرف الذكر موقع أنثاه.

كان المارة قليلين . يدخلون الشارع صامتين عائدين من أعمالهم . يمشون ببطء ووقار وبانحناء خفيف فى ظهورهم. جمعة يعود بعد منتصف الليل. الوحيد الذى أحسب حسابه عند قدوم فاتن. ريحان قفل دكانه ومضى منذ ساعتين تقريباً. تركت باب البيت مفتوحاً . وباب الشقة موارباً لتدخل فور صعودها. كنا نريد ليلة نبيت فيها معاً . خططنا طويلاً لها . نرغب فى أن ننام كل منا إلى جوار الآخر فى الليل. ننام متجاورين ليلة كاملة مثل رجل ينام إلى جوار امرأته . مثل امرأة تنام إلى جوار رجلها.

مازالت غائبة . نائية . بعيدة بُعد ثدى أمى عنى.

هل قالت إنها ستأتى فى الحادية عشرة أم فى الثانية عشرة ؟ نعم. فى الحادية عشرة مساءً قبل أن يعود جمعة. لا. ربما فهمت أنا خطأً . فى الثانية عشرة لا يكون جمعه قد عاد . يعود بعد ذلك بنحو نصف ساعة أو أكثر. لا أعرف.

أحياناً كنا نلتقى فى الصباح الباكر . فى نحو السادسة . أنتظرها فى ميدان التحرير الهادىء الواسع فى هذا الوقت البديع نسير وكف يدها يحضن كف يدى بقوة . تتشبث بخشونته التى تحبها . نتكلم ونضحك دون خوف من أن يرانا

أحد على هذه الصورة. "مازال الأعداء نائمين " كانت تقول فرحة كمراهقة هاربة من عيون أهلها.

عدت إلى الصالة. أجلس وأهز "الموبايل" فى كفى وتهتز رجلى اليمنى هزة خفيفة رتيبة مستمرة. لماذا لا تتصل تليفونياً ؟ عليها أن تفعل قبل أن أجن.. إنها دائماً تفعل هذا معى. يجب أن تتكلم . إنها لا تفهم أن هذا مهم وضرورى لى . ضرورى للغاية. سأحدثها بذلك. ألومها وأنهرها.

مرت خمس عشرة دقيقة أخرى.. هل أنزل إلى الشارع لأترقب حضورها . أنتظرها على ناصية الشارع أم أبقى هنا ؟ ربما تأتى من جهة شارع الرشيدى وأنتظرها أنا فى شارع المواردى. أو العكس . تأتى وأنا فى الخارج. ربما منعها شىء من الحضور . كانت متلهفة على قضاء هذه الليلة التى انتظرناها طويلاً معاً.. إنها متهورة . وأحياناً تقود بسرعة فوق ١٢٠ كم فى الساعة على طريق المعادى الردىء المزدحم. أيكون قد حدث لها شىء. اصطدمت بسيارة . بمبنى. أصابت أحد المارة. هل هى الآن فى المستشفى . فى قسم الشرطة . أخشى أن تكون قد أصيبت . هل يمكن أن تكون قد ماتت فى سيارتها على الطريق. ملقاة على الرصيف تنزف دماً . خلف عجلة القيادة مفتوحة الدماغ والدماء تغرق وجهها . غرقت بسيارتها فى النيل. فى صدرى صرخة رعب هائلة. أضع يدى على صدرى وأدعكه بقوة كأننى أدفع عنها هى الخطر. كانت الساعة قد وصلت إلى الثانية عشرة.. لا هذا مستحيل . هل أنتظر أم أكلمها الآن على تليفونها المحمول ؟

نمرتها , التى أحفظها عن ظهر قلب .أمامى على الشاشة الصغيرة. أخشى أن تظننى سأوبخها على تأخرها فنتشاجر ونتبادل الاتهامات والسباب. يغضبها منى حساسيتى المفرطة . تتهمنى بأننى دائم الشعور بإهمالها لى دون مبرر. كثيراً ما تقول

" انت عندك حساسية مرضية !"

حساسية مرضية ! مرضية !! لا. إذا كلمتها سنتشاجر ولن تأت. أعرف . الطرق مزدحمة . والمرور بطىء. الإشارات التى لا تفتح كثيرة فى مدخل القاهرة الجنوبى . وطريق المعادى طويل. طويل. طويل جداً من المعادى إلى المنيرة. تأخرها عادى. عادى جداً. لكنه ليس عادياً على الإطلاق . إنه جحيم.

قمت من مكانى وقذفت الموبايل على آخر ذراعى وذهبت إلى المطبخ. فتحت البرطمانات الزرقاء الصغيرة المرصوصة فوق رف خشبى . فتحتها الواحد بعد الآخر . ملح . فلفل أسود . بهارات . شطة. لسعت ذرات الشطة عينى فألقيت البرطمان على الأرض وفتحت برطمان البن . ووضعت ملعقتين . ونصف ملعقة سكر وصببت عليها بعض الماء . قلبت طويلاً . أشعلت البوتاجاز ووضعت الكنكة فارغة فوق النار . وخرجت من المطبخ إلى الصالة والكوب فى يدى . ارتشفت منه شفطة وبصقتها على الفور. طعمها مقرف . عدت إلى المطبخ . ووضعت ما فى الكوب فى الكنكة التى كانت تحترق فارغة . وخرجت إلى البلكونة أرقب الشارع. لا أحد فى الشارع . ولا صوت حولى . دخلت حجرة النوم. وقع بصرى على الألبوم

الأسود ملقى فوق المكتب . فتحته واستلقيت على السرير.

نادراً ما كان ينتابنى حنين إلى إلقاء نظرة على صورى الفوتوغرافية التى لا أعرف كيف ظلت محفوظة هنا كل هذا الوقت. لماذا لم تضع مثلما ضاعت أشياء كثيرة مع الانتقال من شقة إلى أخرى. طواف طويل بعد الخروج من شقة العائلة فى شارع خيرت . من العمرانية إلى فيصل، ثم الهرم . ثم الابتعاد قليلاً إلى مدينة نصر. القاهرة مدينة كبيرة واسعة تتيح التجول والتسكع والهجر والنسيان. أخرج من صرتها وأنسى موطن طفولتى وصباى سنوات . وحين تأتى الفرصة أتشبث بها . وأرجع مطأطأ الرأس مثل تلميذ خائب يخاف عقاب المدرس. سكنت سكة الحبانية وفرحت بقربى من ملعب طفولتى وبيت أبى الذى لم أدخله منذ سنوات طويلة . وأخيراً ها أنا فى المنيرة.

وهاهو فى الصورة الأولى فى الألبوم. الرجل الذى وهبنى اسم زعيمه المحبوب. ولدتُ يوم جنازة جمال عبد الناصر.حزن أبى واعتكف فى حجرته ولم يحضر ولادتى . وحين وضعونى بين يديه كفكف دموعه وأسمانى "ناصر".

فعلاً . إنه يبدو هنا وسيماً مثل نجوم السينما . عيناه واسعتان لهما بريق خافت . سوادهما كثيف مشبع . أنفه كبير مستقيم وشفتاه منفرجتان قليلاً فى ابتسامة ساذجة شعره قصير . وبلا شارب . فقط شفة علوية عريضة ينبت فوقها بعض الشعر الأسود والأبيض. لم يكن هكذا تماماً فى الواقع . كان الأستاذ محمد عطاالله رجلاً طيباً وضعيفاً . كما

تقول أمى . ولهذا جزر جزراً. كان فى الخامسة والأربعين من عمره حين مات بعد عشر سنوات من تليّف كبده. كنتُ أتهيأ للالتحاق بالمدرسة الثانوية . وهو يتهيأ للموت.

أقلب الصفحات والصور . وأتأمل الوجوه والأماكن والأشياء، أفكر فى تطور طريقتى فى النظر منذ كنت فى الرابعة عشرة. أمتعض من إخفاقاتى وفشلى . وأتعجب من براعتى فى التقاط مأذنتىّ مسجدىّ شيخون القبلى والبحرى معاً فى ضوء الفجر. أم نعمة بائعة الفول تحولت فى هذه الصورة إلى نجمة غلاف ! كانت خلف قدرة الفول . بيدها طبق ألومونيوم صغير، وفى يدها الأخرى ربطة بصل مرفوعة كأنها باقة زهور. تبتسم للكاميرا ابتسامة واسعة تُظهر أسنانها الصفراء المعوجة. بوستر سياحى بالأبيض والأسود يصلح لتسويق الفول والآثار والعجائز.

صورى تجسّد طريقتى فى الرؤية. ليست على أي حال تسجيلاً آليا للواقع كما يفترض نعمان. أنا أنتقى هذا الكادر أو ذاك من مجموعة لا نهائية من المشاهد الممكنة الأخرى للشىء الواحد. الصورة لا تجسد سوى العين التى ترى . والتى تظل خافية . محجوبة . ومستبعدة. لا وجود للرائى فى الصورة التى تقدم لعيون الآخرين لأنه أنجز مهمته جيداً. مهمة المصور أن يختفى تماماً من المشهد ويموت لتبقى الآلة والصورة وحدهما تصنعان التاريخ . المصور قاتل يرتكب جريمة كاملة دون أن يخلف أثراً.

اندفعت إلى المطبخ . فاصطدمت ركبتى بحلق الباب.

تأوهت ووضعت يدى على جرح صغير انفتح أعلى ركبتى. بصعوبة . استطعت الوصول إلى البوتوجاز . أغلقته. كانت الكنكة فارغة . وقاعها متوهج بالاحمرار . تكاد تنصهر . وسائل بنى يعوم فوق السطح الأبيض. أشحت بيدى لنفسى . وزفرت مستاءً من غبائى.

لن تأت. بالتأكيد لن تأت. " ملعون أبوها."

قاومت . بشراسة . الانفجار فى البكاء. البكاء الطويل الذى يهز صدرى . ويكاد يخرج أحشائى من فمى. أشنج ويخرج سائل أبيض متصل من فتحتى أنفى . ويغرق وجهى فى دموع مالحة.

لم أعد أبكى منذ زمن طويل. كنت فى تلك اللحظة بحاجة إلى أن أعود ذلك الرجل القادر على البكاء مثل طفل طبيعى . لكن لا شىء يعود كما كان أبداً.

فكرتُ فى الخروج إلى الشارع . والذهاب إلى أى بار. التقطت التى شيرت المكرمش المتسخ الملقى على السرير وأدخلت قدمىّ فى بنطلون جبردين أسود. رن جرس الموبايل . ترددت قليلاً وأنا أراه كحيوان صغير يعوى على بلاط الصالة. كانت هى وكنت أسمع صوتى يأتينى من عالم آخر.

" أيوه.. ها.. ها . مش سامع م الدوشة "

"........"

" لا.. لا. مش خارج.. وانتِ من أهله ".

صفقت الباب خلفى بغضب ونزلت السلالم جرياً. الآن ، لا أعرف أين أذهب . تركت قدمى تقودانى إلى ميدان السيدة زينب ، أبعد ما يكون عن مكان حفل عيد ميلاد نادية الذى تذكرته فاتن ونسيت أن تخبرنى به. كانت تكلمنى من هناك...

طيلة تجوالى كنت أراها تشرب وترقص مع مراد. مراد على وجه الخصوص هو الشخص الملائم لأن تقضى معه وقتاً لطيفاً.. وممتعاً.. ليس جديداً عليها ، ربما ستذهب معه إلى الفراش حتى لا تتورط معى إلى درجة أبعد ! ببساطة . ستبرر ما تفعله لنفسها قائلة " مراد شخص ظريف . ظريف جداً ".

26

كنتُ أجول فى شوارع وحوارى السيدة زينب . وسط الزحام والضجيج ولا أرى سوى صور وأفكار وتهاويم تتزاحم داخل رأسى. لم يعد ما هو جنسى سفيه وتافه فى هذه الأيام وإن اكتسب أكثر الأشكال فجاجة وغلظة . شكل السلعة. صار العاطفى هو السفيه التافه الذى نخجل من الكلام عنه. العاطفى هو الخاضع للكبت والقمع . الخاضع للرقابة والمصادرة بصفة أساسية. باسم ما ليس فى الواقع سوى عاطفية أخرى فجة . رثة وتافهة. غير مسموح للعاشق أن يعيش عاطفته بمعزل عن الآلية الميكانيكية لفعل الجنس المادى. العاشق . اليوم . يسلك كمخالفة قوية . كشارد خارج القطيع . يُترك منبوذاً . وحيداً . هدفاً مكشوفاً لقصف الآخرين. لأنه بوجوده فحسب يجسد ما هو عاطفى. عشقى. ما هو بمثابة البذىء فى الحب الآن.

إن ثورتى تنمو فى الاتجاه المضاد تماماً. إذا كانوا يرون أن

العاطفية . ولا أقول الرومانتيكية الرثة والترهلات الانفعالية . العاطفية التى هى أخص مفردات التعبير الشخصى عن وجود الفرد ومشاعره ولذته . إذا كانوا يقولون إن هذه العاطفية قيمة بالية حقاً فى علاقة الرجل بالمرأة. فإن ما يهبنى جرأتى وثورتى العارمة هو التشبث بهذه البذاءة. أنا بذىء فى عشقى . لا أجد لنفسى مفراً من أن أظل هكذا. مغرماً . ممتلئاً بالأبق . بالشراسة. بالجنون والنزق والخبل. تؤثر فىّ الأحداث التافهة التى لا تكاد تكون مرئية . حركة أصابعها المتوترة التى تنقر الطاولة . التفاتها حولها وأنا أكلمها . يقينى أن فى رأسها أشياء أخرى أجهلها . انشغالها عنى . سرحانها . وذكرياتها التى لا أستطيع النفاذ إليها . وجود الآخرين يؤذينى ويعكر مزاجى . إهمالها موعدى على هذا النحو الفج . صديقتها التى أكرهها لأنها تستحوذ على جزء من حياتها . مراد هذا الذى تراقصه . ويهتز جسدها بين يديه..

لا. لا أستطيع أن أتخيل أنها تتركنى . هكذا ببساطة وتذهب إليهم.

27

الليلة . وأنا أتأمل جسدها العارى . وهذه الحركات البطيئة المملة التى نقوم بها لإذكاء شىء مبهم حلَّ فينا معاً أرانى غير مبالٍ بالارتخاء . باللامبالاة المهينة لعضو الانتصار التاريخى لجنسى . جنس الرجال الذين يخجلون من عجز أعضائهم ويشعرون بالعار لذلك.كدت أبكى وأنا أشاهد نفسى عارياً خالياً من الرغبة والشهوة والجنون. تركت جسدى أمامها مسجى بلا أنفاس حارة . ولا حركات عنيفة . مجرد جسد عار هادىء مستكين. مستسلم وهى تحاول نفخ الروح فيه.

أنصت إلى وقع أقدام الصاعدين على درجات السلم. أترقب أن يطرق جمعة بابى ليطلب بعض الملح ويتلصص . كالعادة. فى أرجاء الشقة . يمتعض حين لا يجد شيئاً غريباً أو امرأة أو واحدة من أخواته كما يتوقع . رغبت فى تلك الليلة أن يأتى بأى حجة لأتخلص من فاتن.

تأخرت فى سداد الإيجار هذا الشهر. أضعت سنوات من

عمرى متجولاً فى الشوارع وجالساً فى المقاهى والبارات بلا أهداف سوى براءة تأمل الحياة القاهرية. المدينة التى أهواها وأكرهها وأسخط عليها ولا أرغب فى العيش سوى فيها.

أحسست أننى أريد أن أخنق فاتن وأخلص . كما فعلها جدى عطا الله.

خنقها فى الفجر. كان يمسد لها جسمها ونسى أصابع يديه العشرة فوق رقبتها. كانت عيناه مفتوحتين لآخرهما تحملقان فيها. وجسده مشدود فى وقفته الصارمة وعضوه مرتخٍ تماماً. لا يشعر بوجوده.

كان يفكر فى صعوبة أن يتجاوز هذا الحيز من العالم . الحيز الذى يشمل رجل فى مواجهة امرأة مستلقية على سرير ترغب فى الاستمتاع بأصابع وباطن وأظافر يد خشنة . امرأة تعد لمساته وتحسب حركاته وتسجل انتقالاته البطيئة . المتسرعة . اللذيذة والمؤلمة . المدربة والساذجة . امرأة تتأوه وتصرخ من اللذة أو من الحرمان . وفى النهاية تمتلك جهازاً دقيقاً جداً لتقييم التجربة برمتها . ووزنه كرجل. تمنحه بعد أن ينتهى قبلة امتنان رائعة أو تكتفى بالتربيت على كتفه لتبلغه النتيجة بصيغة شاعرية ملائمة للقيمة التى أضفتها على تجربته. إنها المرأة . دائما حكيمة لدرجة كافية . حتى أنها لا تعلن الفشل صراحة. لم يستطع جدى العجوز. وهو فى هذه الحالة المزرية أن يتحمل صدمة الإخفاق والفشل. فى اللحظة التى سبقت تحرك أصابعه وكفيه على رقبتها مطوقاً إياها ربتت هى على ظهره. بنفس الحركة التى يعرفها من

معاشرتهما الطويلة. إنها وإن كانت عجوزاً ليست راضية على الإطلاق. على الرغم من اللذات العظيمة التى منحها لها فى آلاف المرات السابقة. لا تعرف سوى ضعفه وفشله وحرمانها. المرأة ، غالباً ، لا ترغب في أن تتذكر المسرات التى يمنحها الرجل لأنها تنتظر المسرة القادمة ، وإن كانت عجوزاً متعجلة تصير بلا ذاكرة أصلاً. مرة واحدة فاشلة تكفى لتحطيم تاريخهما المشترك كله. خسارة واحدة تَجُب كل الانتصارات الكبيرة. كان عليه أن يفعل ما فعل بلا أدنى تردد. إنها تحت يديه . راغبة ومريدة تبحث عن لذة الاسترخاء الأخير . إنها تطمع فى الصعود لأعلى ، فى الطيران . هوسها لا حد له. عليه أن يهبها ما تريد وإلا حنقت عليه لنهاية عمره. عند هذا الحد تحركت أصابع يديه الغليظة المعروقة وأطبق يديه حول رقبتها وحدق فى عينيها. كانت تشجعه بنظراتها الراغبة الممتنة.لم تستطع أن تقاوم سحر اللحظة وبهجتها الفاتنة. كانت عطشانة تترقب الارتواء . ببطء شديد أخذ يضغط على شريان رقبتها وهى تتأوه ألماً ولذة . تشعر بمتعه لم تعرفها من قبل أبداً . لم تجفل . كانت تستحثه أن يواصل بنظراتها ووجهها المتشنج قليلاً. ألمح لها بطرف عينه أنه هو أيضاً يريد أن يتخلص من إحساسه بالخزى . وأنه يحبها كما لم يحب شيئاً آخر فى حياته . وأن هذه اللحظة هى ذروة محبته. أحبها . وهو يقتلها حباً جديداً كأنها امرأة أخرى تتفتح له للمرة الأولى. قارب ما بين إصبعى الإبهام والسبابة فى كفيه . كانت رقبتها المعروقة نحيفة فتلامست أصابعه بسهولة . ضغط بقوة . بلا انفعال . بمحبة وبإصرار حتى أحس شرايين رقبتها تكاد تنفجر

تحت جلد رقبتها . وتحت أنامله. نظر إلى صدرها . لم يعد يعلو وينخفض. لم يعد يسمع صوتاً سوى صوت دم طازج يجرى فى عروقه. أوردته وشرايينه . وطقطقة عموده الفقارى الذى انتصب . صوت كان يسمعه من جسمه قبل أربعين عاماً. كانت شفتاها منطبقتين . وعيناها مفتوحتين بنظرة فرح كامل وامتنان مطلق . وجهها صاف جميل جمال غامض استعصى عليه فهم منبعه. حين حدق فى عينيها أصابه الهلع والرعب . هاله ما عرف ورأى من الإشراق والروعة. ارتجفت شفتاه وهو يقبلها قبلة طويلة لم يتذوق مثلها أبداً . ترك شفتيها بعد وقت طويل . أسبل عينيها ونام إلى جوارها فوراً . نوماً هادئاً كاملاً كما أنام أنا . الآن . إلى جوار فاتن التى كان آخر عهدى بها قبضة عاصرة يائسة تستجدى عضوى النائم فى سلام.

بعد ساعتين استيقظت بانتصاب مؤلم . ففعلت كما لم أفعل من قبل.

بعد أن انتهيت قالت، وهى تسلط علىّ عينيها التى لا أطيق النظر فيها . وبصوت جاف محايد:

- " انت بتحب الجنس أكثر من أى حاجة تانية ! "

" وانتِ ما بتحبهوش ؟! "

" ما تسألنيش . أنا اللى باسألك ".

" يمكن ".

زفرت بقوة وقد نفد صبرها.

" هو آيه اللى يمكن ؟! كل كلامك . يمكن . جايز . بينهيألى.. آيه ؟!!"

" يمكن بحب الجنس فعلاً ".

" إف إف . انت لا تطاق ".

ظللتُ جالساً فى مكانى أدخن. تركتها تلتقط حقيبتها وتمضى. لم يتغير اتجاه بصرى . أنظر إلى الباب الذى صفقته خلفها . وأهدهد نفسى بهز قدمى. ربما كانت ردودى باردة أكثر من اللازم . لكننى أبغض هذا النوع الذى تجيد ممارسته من الاستجواب . ولا أرضخ له بسهولة. كانت متعبة قليلاً . وكنت هائجاً . مشتاقاً . جسدى خرمان . ظمآن يرتعش رغبة وقدرة. هدير الحصان الأسود الشرس يصم أذنىّ . يصرخ كأسد جائع على شفا الموت من الجوع فلم أدرك ما أفعل. دبت فىّ الرغبة الهادرة فجأة . انطلقت إثارات متموجة رائعة فى عمق جسدى جبت خوائى وفراغ جوفى . ملأنى الصخب وهو يتصاعد بشكل غريب كأنه أجراس القيامة تقوم. ذاهلاً. منتشياً كنت أسمع صرخاتها البرية القصيرة ودوىّ عنفى يخرج منها أنيناً . أسيل برمتى كطوفان وأخسر ببطء . لم أكن أراها. لم أكن أرى سوى صورة الأجراس الضخمة تملأ الكادر. كنت أنطلق فى غابة الدواب. ويمرح جسدى بالنشوة والمتعة . متعة لا يمكن وصفها . ليس لها صلة بالكلام الأخرس الناقص. لم يبق سوى صوت أنانيتى وشبقى . الترس الهائل

الذى فرمها تحت آلتى.

بشكل ما كنت أنتقم لكبريائى . أهينها لمحو ما حل بى من إهانة. ربما انصرافها عنى ، واندماجها مع شلة السهر شبه اليومية ، نادية ومراد والآخرين . يجعلنى أحمق ، ومستعداً للاستفزاز والتهور. لا أعرف.

ليلة أمس كانوا يسهرون فى شقة مراد. لم أذهب مع فاتن. لا أرتاح لهذا الكهل الممتلىء بزهو شخصى ضخم يشبه أمواله الكثيرة. فيه وقاحة وخسة لا أفهمها . يبيع ابنه بدولارين كرجل متحضر يؤمن بالنموذج الأرقى من الحياة ، النموذج الأرقى الذى وصل إليه عبر صلات وأعمال مريبة لا أعرفها ، ولا أريد أن يكون لى صلة بهذا الوضيع الذى تعتبره فاتن صديقاً مخلصاً.

28

أحداث حياتى تافهة إلى حد يجعلها لا تبلغ الكتابة إلا عبر جهد هائل. الكتابة مؤلمة. الكتابة مرّة فى حلقى، أمرّ من أدوية تليّف الكبد التى كنت أذوقها وأضعها فى فم أبى.

الكتابة عمل شاق مضنٍ لدرجة لا تحتمل. إنه الألم الصرف المزمن الثابت الذى يغزو معدتى، ويجعل حلقى جافاً ومراً . لا طعم للسيجارة . ولا طعم للطعام والفاكهة التى أدحرجها مللاً وعجزاً فوق طاولة الكتابة والوجبات.

ربما لأنها شىء يحدث بفاعلية الجر بينما ما أحاول أن أصفه هو تجلط الدم وانسياله وفورانه وهديره. دم ينزف من رقبة مطعونة بمطواة ذات نصل بالغ الحدة والصلابة والرهافة. البعد بين الحبر والدم هو البعد بين ما حدث . وما أحاول أن أذكره هنا. همتى ورغبتى فيها شبه معدومة . ميتة. وكل ما أحاول أن أكتبه سيظل دائماً شيئاً فجاً تافهاً وسطحياً . لا غور له ولا امتداد ولا قاع . تماماً مثل هذه القاذورات الملقاة فى

سلة الزبالة فى ركن غرفتى.

وحدها غرفتى تغنينى عن الكتابة. صدفة حارسة أدخلها وأمكث تحتها وأفكر فى الحدث الصغير الذى صعقنى . لا أعرف سوى جراحى النازفة وعللى وتأويلاتى وذبذباتى . والدوىّ الهائل الذى أحدثه انصرافها عنى الليلة دون أن تقبلنى. من يفهم شيئاً من هذا.

لا أريد ولا أرغب فى الكتابة. ليس سوى شخص آخر هو ذلك القادر على كتابة روايتى الخاصة.

29

جمعة قتل رجلاً عجوزاً لا يعرفه. جمعه فقد عقله.

بعد أن مسح بلاط دكان الكشرى ونظف الترابيزات الحديدية وقواعدها الرخامية السوداء . والكراسى البلاستيك البيضاء . وغسل حوائط الدكان السيراميك بالماء والصابون والرابسو وصار المحل المستطيل الصغير يلمع أنيقاً نظيفاً . دخل جمعة الحمام الصغير فى آخر الدكان . خلع البنطلون البنى والجاكتة البنية المكتوب على جيبها العلوى بالخيط الأبيض " مسعود ". ارتدى الملابس التى أتى بها إلى المحل هذا الصباح . القميص الأزرق الواسع والبنطلون الجينز الأسود. مشط شعره بمشط أسود يحرص على دفنه فى جيب بنطلونه الخلفى. خرج وأخذ من المعلم مسعود يوميته . وكان على وشك أن يغادر إلى بيته ككل ليلة.

كان المعلم مسعود قد رمى جوان الباجو الثالث . وأخرج من محفظته الجوان الرابع ملفوفاً جاهزاً. وضعه بين شفتيه

وأشعله بسحبة نفس قوية . فكح حتى اهتزت الولاعة الذهبية فى يده . فوضعها فى سيّالة جلبابه الكشمير. لحظتها كان جمعة ينحنى ليربط رباط حذائه شبه البالى فوقعت عين المعلم على عجيزته الضخمة فضحك بشخير متصل.

" إخ إخ.. إخ.. إخ.. هىء هىء.. هىء هىء.. "

اضطرب جمعة . وانتفض واقفاً دون أن يربط رباط فردة حذائه اليسرى وأخذ جسد مسعود الضخم يهتز فى جلسته خلف نصبة الماركات وفمه الواسع الكبير مفشوخ على آخره فكه العلوى بارز وأسنانه مسودة.

"إخ إخ.. هىء هىء.. هىء هىء.. "

الأسطى سلمان الطباخ وأحمد صبى المعلم وخادمه الخاص، ومحروس السفرجى كانوا قد تجمعوا فى مؤخرة الدكان وجلسوا على الأريكة الحديد الكبيرة ينظرون بعضهم لبعض ويتابعون ما يجرى. سلمان صار كرشه الكروى الكبير يهتز هزات متتابعة وهو يضحك بصوت ضعيف واهن من مرض أحشائه. محروس تجهم وأخذ يضغط على شفتيه حابساً غصة فى حلقه .ويبتلع ريقه مرات متتابعة. أحياناً كان ينجح فى دفع استهزاءات المعلم عن جمعة . لكن والمعلم فى هذه الحالة من الانسجام التام لن يتورع عن صفعه وركله هو. أما أحمد . الذى يناديه المعلم "حموؤه " فكان ينظر إلى المعلم وجمعة شارداً . صامتاً . لا مبالياً.

" إخ إخ.. إخ هىء.. هىء.. أستاذ أستاذ "

يشير إليه بيده اليمنى الطويلة الغليظة ويضع يده الأخرى على رأسه يثبته لئلا يقع فى هذه النوبة الهائلة من الضحك التى رددتها حيطان الدكان كضحكات مغدنية متتالية. أخيراً استطاع جمعه أن ينبس بشىء ، بصوت خفيض متزن.

" يا معلم.. يا مــ.. "

ارتفعت قهقهة المعلم أقوى من أية مرة سابقة

" معلم.. معلم.. إخ إخ.. هىء.. هىء... "

قال محروس :

" المعلم زودها.. هيطق بالشكل ده ".

قال سلمان :

" شكله حلو قوى وهو مبسوط ".

تلفت جمعة حواليه، والتقت عيناه بعينى محروس فرأى فيهما شفقة كرهها ، فاقترب من نصبة المعلم

" مش كده يا معلم.. أنا عايزك مبسوط على طول بس مش كده. "

توقف المعلم عن الضحك وأخذ نفساً عميقاً من جوانه، وضم شفتيه فصار فمه مثل فتحة ماسورة واسعة وأخرج

تياراً متدفقاً من الدخان فى وجه جمعة . فعطس وتراجع للخلف بلا إرادة . واحمرت عيناه ودمعت. صرخ :

" ياابن الوسخة ".

انتفض المعلم من مكانه وهو يلم جلبابه الواسع بيده اليمنى ولفافة البانجو فى يده اليسرى. خرج من خلف نصبته وصار فى مواجهة جمعة . هرول محروس وأحمد من الخلف فى اتجاههما . ووقفا بينهما..

" بتشتمنى أنا ياجربوع.. يا ابن الكلب.. أنا.. أنا اللى لميتك م الشوارع ".

كان أحمد قد صار قريباً من صدر المعلم فوضع المعلم كف يده اليمنى السمين على قفا أحمد وصار يتحسس نعومته . بينما كان محروس يرفع يديه لأعلى محاولاً حجب جمعه. أزاح المعلم محروس إلى يساره فتحرك بسهولة . نظر المعلم لجمعة من فوق لتحت باحتقار وقلب شفتيه . وحين لمح ارتعاشة ركب جمعة انفجر فى الضحك مرة واحدة.

" إخ إخ أستاذ.. هىء هىء.. أستاذ.. أستاذ جمعة "

لم يتمالك محروس وأحمد نفسيهما فأخذا يضحكان وهما يحدقان فى ركب جمعة التى تصطك ببعضها . وجمعة يجاهد ليوقف حركتها ويثبت.

" حشرات.. حشرات.. هى كلية العلوم خرجت حشرات كثيرة زيك كده يا أستاذ جمعة ؟!.. هىء هىء.. هىء.. "

صمتَ محروس وأحمد . فاستطاع جمعة . بجهد بالغ. أن يلملم نفسه.وواصل المعلم مسعود ضحكه الذى بدا أن لا نهاية له. بعد زمن قال وهو يطبطب على بطنه :

" بذمتك مش أنا أحسن م الحكومة.. أنا حكومة يا كلاب.. وظفتك . وشغلتك يا بتاع الحشرات.. حشرات.. حشرات! إخ إخ.. هوء هوء.. "

قال محروس بلطف :

" خلاص يا معلم.. الأستاذ جم.. "

" إخ إخ.. هوء هوء.. أستاذ "

" يا معلم.. "

" معلم معلم..إخ إخ.. هوء هوء.. هوء.. "

قال أحمد بتوسل وهو يحدق فى جوان الباجو بيد المعلم :

" ما تجيب نفس يا معلم ".

نظر إليه المعلم فرأى لعابه يسيل. فصفعه على قفاه صفعة خفيفة.

" خد يا له.. اتكيف.. وابقى أفلح عشان تبقى أستاذ.. زى الأستاذ "

شهق المعلم وأخذ يتنطط مكانه وهو يرغى ويدمع ويضرب ناصيته العريضة بكف يده.

" إخ.. هـوء هـوء.. الأسـتاذ.. هـوء هـوء.. جـمـعـة "

مشـى جمعة بخطوات بطيئة إلى خارج الدكان. اجتاز سـوق الخضار الذى أغلقت معظـم دكاكينـه .كـان يسـير وعيناه فى الأرض. وقدماه تقودانه وحدهما بآلية إلى البيت

بعدها بساعة نزل جمعة السلالم الحجرية للبيت القديم بخطواته البطيئة الثقيلة بعـد أن وبخ وضـرب أختـه الكـبرى لأنها كانـت واقفـة أمـام المـرآة تحـط روج . وبـودرة ومسـكرة. تضعها وتزيلها. وتعود تضعها وتزيلـها. دخـل عليهـا جمعـة وهى تعلم أختيها أصـول وضـع الماكيـاج وقواعـده. لم يأكـل جمعة شيئاً فى البيت فى تلك الليلة.

قالت أختاه أسماء ووردة أنه كان طيباً معهما هذه الليلـة. وأنه لم يضرب ماجدة بغلّ وقوة مثل كل ليلة.

اجتـاز شـارع الرشـيدى.وعرج يمينـاً ليعـبر شـارع القصـر العينـى مخلفاً وراءه حىّ المنيرة . مستقبلاً نسـمات هـواء بـاردة تأتى مـن جهـة النـهر المختفـى عـن ناظريـه خلـف العمـارات القديمـة والقصـور والسـفارات فى جـاردن سـيتى. أنعشـته النسمات اللطيفة. ففتح زرار قميصه العلوى لهـا وتحسـس بأصابع مرتجفة مقبض سكين المطبخ الكـبير الـذى ألصـقه بجانبه الأيمن بين الحوض والبطن. ملمسـه بـارد . بنصـله بقايـا بصل تلمس جلد بطنه كأنها براغيث ساكنة هادئة لا تتحرك . هرش تحتها قليلاً ومشـى بخطوات بطيئة على الطوار البازلـت الجديد. أمامه النيل ضيق راكد قاتم السـمرة فى الليـل . تتنـاثر

على أمواجه الهادئة أضواء متباعدة تأتى من مبانى الفنادق الشاهقة . والسفن السياحية الرابضة على حواف النيل . والمراكب الصغيرة. كانت السماء صافية الزرقة . تتناثر على صفحتها النجوم . والليل رائق لا يقطع سكونه سوى خطوات بعض المارة القلائل . يمرون دون صخب . مسرعين أو مبطئين لا يلقون نظرة عليه . وهو يراقب الجميع بعينين متعطشتين لرؤية رجل يسير وحيداً. كان حظه عاثراً . مر ثلاث شبان . ورجل وامرأة . وعجوز يجر بيده امرأة أعجز منه . وشلة فتيات وشباب. قفز إلى السور الحجرى للنهر وجلس. أشعل سيجارة . وجذب أنفاسها ببطء ومتعة كبيرة. فجأة وقع بصره على رجل وحيد يجلس أمام بوابة بادٍ فى ضوء ضعيف. ابتسم لنفسه. قفز إلى الأرض ومشى بخطوات مسرعة نحو الرجل الجالس . نشل سكينه بسرعة ووضع يده خلف ظهره واتجه إليه وهو يصفر سعيداً. حينما صار فى مواجهة الرجل . وقف له. فبان عجوزاً فى نحو الستين بجسد ضئيل ووجه يبدو مألوفاً له. كان العجوز يرحب به . جمعة لم يفكر كثيراً . كانت يده سريعة للغاية . فى لحظة رشق سكينه فى صدر العجوز. فى قلبه مباشرة . دون أن يهتز . سقط العجوز فوراً على الأرض وفى صدره السكين مغروساً لآخره. سقط دون أن يشهق . ولم يستطع جمعة أن يرى وجه الرجل فى الضوء الشحيح .أعطى ظهره للجثة ومضى هادئاً . خالياً. عقله فارغ تماماً من الأفكار. مثل عجوز حكيم يتأمل النهر معرضاً عن العالم. كان جمعة مطمئناً ويشعر بسعادة خفية لبعض دقائق..

على بعد كيلو متر واحد رأى مبنى قسم الشرطة الأنيق .

فيلا قديمة ذات حديقة كبيرة . اجتاز الحديقة ودخل إلى المبنى.
قال لهم " لقد قتلت رجلاً لا أعرفه.. هذا كل ما حدث ".

30

عندما كنت أنظر إليها وهى تتكلم أتعمد ألا تقع عيناى على الحلقات الرفيعة الدائرية التى تكسو أعلى رقبتها . خطوطها كثيرة غائرة . محفورة فى الجلد وأفتح قليلاً من لون بشرتها البرونزية . كأنها دوائر الماء بعد قذف نهر بحجر. الجيولوجيون يستدلون على أعمار الأحجار والصخور والنيازك وطبقات الأرض بإحصاء عدد هذه الدوائر العرضية الرقيقة. الحيوانات أيضاً تدل ثنيات رقابها على أعمارها.

يصدمنى منظرها . وهى لا تضع شيئاً حول رقبتها . ولا تقلد فى ذلك وردة الجزائرية أو نجوى إبراهيم. أشيح ببصرى عنها محاذراً أن يظهر على وجهى أى امتعاض. كنت حزيناً على شبابها الذى لم أعرفه سوى من خلال بعض الصور الفوتوغرافية القليلة. كانت جميلة فعلاً بلا ثنيات فى رقبتها.

عندما يرغب الناس فى شئ . فى شخص من كل قلوبهم التواقة للارتباط بالجمادات والحيوانات والبشر. لا يعودون يرون ما

يرغبون فيه . فى واقعه وظلمته وعجزه وقبحه. لا نعود نرى سوى حقيقة ارتباطه بنا . تلك الحقيقة التى تهبه النور والجمال والقوة. من صنع أيدينا . أيدينا الغبية المبدعة. نخلق لأنفسنا أصنامنا الشخصية. فاتن هى صنمى، صنمى الرائع . صنمى الذى اخترعته وصنعته من حاجتى وولعى وشهوتى. فعلت ثم حنقت وغضبت لأنى لم أعد أفهمه. لم أستوعب بعد كيف تتصرف وفقاً لهويتها الخاصة . لأهوائها وشهواتها ونزواتها واستقلالها البليد بعيداً عنى.

كانت زليخة هى التى تغوى يوسف . وتلح فى دعوته إلى مخدعها الوثير الناعم. لم تيأس من صده لها طيلة ثلاث سنوات كاملة. يوسف كان فى مقام الولد بالنسبة لها ، الابن . أقرب إلى أن يكون ابناً بالتبنى. ألم يقل لها زوجها عزيز مصر " أحسنى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ". كان لزليخة على الرغم من جمالها الباهر تجاعيد رهيفة فى جلد رقبتها تشى بعمرها الذى يتجاوز ضعف عمر يوسف. ربما كان بينهما أكثر من عشرين عاماً.

هى أغوته وهو لم يرضخ لها لما رأى برهان ربه. أنا أغويتها. وضممتها إلى جسدى. ونزعت عنها قميص نومها لتظهر لى حقيقتها عارية ناصعة. بريئة وكاملة مثل فجر الصيف. مثل شمس الظهيرة تحتل منتصف السماء. تسلخ الجلود وتتسلط على الوجوه والرؤوس. رأيتها وعرفتها ونكحتها. أضاجعها ولا أشبع ولا أرتوي. لا تزول لى رغبة. ولا أرى لى برهاناً يعصمنى تظل رغبتى جامحة . فى جوفى يرتع حصانى الأسود. ينخس

جسدى ويدفعه . يطوحه. ويركله حين يتمدد على السرير خاملاً كسولاً لا يفعل شيئاً . مستسلماً للكمون والراحة. يزغدنى بحافره فى صدرى ويصهل فى وجهى . يلتقط ياقة قميصى ويجرنى بأسنانه وفمه. يجتاز بى الحوارى والشوارع والميادين حتى يصل بى إليها فى صحرائها التى تحبها . صحراء المقطم. يلقينى أمامها. عند قدميها نظيفاً . حليق الذقن. متورد الوجه. ليس بى من تعب الطريق وفظاظة الجر سوى نار الشهوة تفح فى جوفى. قميصى مفتوح عن صدر عريض وشعر أسود غزير. تتفضل علىّ بنظرة فاتن الواقفة فى كبرياء ملكة منتصرة. تتركنى أهدئ نفسى قليلاً جالساً عند قدميها . ألهث مثل كلب مقيد جائع. يمر وقت طويل قبل أن تخلع ثوبها وهى تصب حكمتها الهزلية فى أذني

" لا أحد. لا أحد يهرب من مصيره ".

31

إن ما يتعذر فهمه يتعذر فهمه. ولا شيء أكثر من ذلك.

أولئك المتوحشون الذين يُحكى عنهم أنهم مثل الجياد التى تتوق إلى قطع شرايينها بأسنانها كى تتنفس بحرية أكبر. أو مثل الأفيال حين تشعر بدنو الموت منها تنفصل عن القطيع وترحل بعيداً فى صمت وتنتظر النهاية.

أولئك المتوحشون الذين لا يتوقون إلا إلى الموت أو أنهم، وهذا أصح، لم يعودوا يتوقون حتى إلى الموت. بل يتوق الموت إليهم فيستسلمون له ببساطة. بدون ضجيج أو إزعاج للآخرين. يُقال إنهم يسقطون على رمال الشاطىء ثم لا ينهضون أبداً تاركين وراءهم علامة وحيدة على وجود كان فى زمن آخر. تاركين جثة. التفكير فى الانتحار هو نوع من التوحش. بهذا المعنى، أنظر إلى نفسى أحياناً كإنسان متوحش يعيش في بداية الألفية الثالثة. متوحش يشبه ريحان.

منذ رأيت ريحان للمرة الأولى وهو يخيط الأكفان كل يوم. وبحساب بسيط. إذا كانت خياطة جانبين من القماش بحجم إنسان عادى بالطريقة اليدوية المعتادة باستخدام الخيط والإبرة. وعلى أقصى تقدير . يمكن أن تستغرق يوماً كاملاً من العمل فإن هذا العجوز يخيط نحو ستة وعشرين كفناً فى الشهر . لأنه حريص على إجازته الأسبوعية يوم الجمعة إن لم يكن هناك طوارىء. ولأن الموتى قليلون هذه الأيام . وفى كل الشهور السابقة بحيث لم يلجأ إلى طلب خدماته سوى ثلاث أو أربع جماعات فى الشهر على الأكثر. فإن ريحان يحتفظ بما يزيد على ثلاثة وعشرين كفناً إضافياً لا تذهب مع المتوفين إلى قبورهم. وإذا كان الأمر على هذا النحو. فهل كان يواصل الخياطة كل يوم كى يحتفظ بآلاف الأكفان غير المطلوبة على الأرفف الخشبية فى دكانه الصغير أو فى مخزن سرى لا أعرفه ؟

ظل هذا اللغز يؤرقنى لأيام وشهور طويلة.

كنت أعرف أن الكفن مثل ملابس الإحرام التى يذهب بها الحجاج إلى البيت الحرام لا تُخيّط. فقط . قطعة قماش أبيض تلف الجسد. تستر العورة ويُترك بقية الجسد عارياً. ثوب بسيط أبيض نقى مثل لفة الوليد. الوليد والحاج والميت ثلاثة أنقياء يستحقون هذا الملبس الرحيم. كان ظنى غير صحيح . فريحان يخيط أطراف الكفن بخيط أبيض . وإن لم يتخذ شكل الثوب. فما حاجة الجسد الميت إلى ثوب مخيط إن كان سيبلى على أى حال.

ما أعرفه عن ريحان كثير. لدرجة أننى تائه داخله. فيه.

لدرجة أننى أكاد أنسى عنه كل شىء. إنه موجود فى ركن مظلم من جسدى مثل سلسلة عمودى الفقارى. أعرف أنها موجودة هناك. قلما أراها أو ألمسها كى أتأكد من وجودها فى موضعها. ريحان فقرة فى هذه السلسلة المنسية ، شبه المجهولة فى ظهرى . ولكن لا قيام ولا حركة ولا انحناء بدونها.. إنه موجود دائماً فوق دكته الخشبية.

يلاحقنى وجهه المتجمد فى ابتسامته أحياناً . وما إن أنساه حتى يقتحم علىّ وحدتى فى غرفتى. يزاحمنى فى سرحانى وأفكارى وحين أخرج للعمل. وأنا ألتقط كادر مزدحم بالناس والتجار والبضائع فى شارع الغورية. يقفز داخل رأسى بوجهه الطيب الجميل فأتوقف عن الفعل. ويستحوذ لغزه على اهتمامى مرة أخرى. وعندما أكاد أيأس من حله أفكر فى إهمال الأمر برمته.

" ريحان.. هاها.. بتعمل آيه يا راجل ؟ "

رأيته تلك الليلة وهو يفض ما قضى يومه فى عمله.

كان كل مساء حين يكون على وشك إغلاق دكانه يمسك الكفن. الذى قضى يومه فى خياطته بين يديه المعروقتين الماهرتين. وببطء يبدأ فى فك الخياطة محاذراً أن يحدث أى قطع فى الكفن . يفك ما خاطه ليعود الكفن كما كان. قطعة قماش بفتة كبيرة طولها نحو المترين وعرضها متر. يطويها بعناية ويضعها على الرف الخشبى إلى جوار قماش الأكفان الأخرى.

فى الصباح يأتى بهذا القماش نفسه ليبدأ فى خياطته من جديد. هكذا كل يوم . يخيط القماش فى النهار ويفضه فى المساء. ويترك لى حيرة أشد من حيرتى الأولى.

32

كنت أفكر فيما قالته لى ذات مرة " لماذا لم أقابلك منذ عشرين سنة مضت ".

كنت ممتناً لها فى تلك اللحظة الجميلة التى نادراً ما تكررت بيننا. كانت تلك العبارة طلقة رصاص استقرت فى صدرى لزمن طويل. كم رددت لنفسى هذه الجملة كلما تشاحنّا أو غضبت منها أوفكرت فى هجرها. كانت جوهرتها هذه تغسلنى كلىّ . تجعلنى أحتقر انفجارات غضبى وسخطى عليها.

لكن، الآن، أين ذهبت هذه الروح التى وهبتنى بعض الأمن فى بداية علاقتى بها. صارت اندفاعتها الأولى مجرد ماضٍ. الأمنيات الصغيرة التى كنت أعرف مسبقاً أنها لن تحدث أبداً . ومع هذا تشبثت بها طويلاً . تركتها تكررها على سمعى مراراً . جولة حول البحر الأبيض المتوسط فى سفينة يونانية بطيئة . شقة صغيرة مشتركة . خمس ساعات يومياً معاً على

الأقل.. أين ذهبت أمنياتنا ، لم تعد تتكلم عنها.

كنت أنتظر أن تقول لى فجأة ، "لماذا لا نعيش معاً؟!" حين وصلنا إلى هذا المشهد.

كانت تبدو أنيقة أكثر من المعتاد قليلاً فى بنطلونها الواسع والجاكت القرمزى الخفيف. شعرها يلمع بحمرة خفيفة، حديث الصبغ. كانت لا مبالية وابتسامتها الساخرة على طرف شفتيها. تكلمت طويلاً ، ثرثرت عن أنواع السلطات التى يقدمها هذا المطعم السويسرى وقارنتها بما تقدمه المطاعم الأوروبية والأمريكية فى الخليج. لفت ودارت كثيراً قبل أن تطرق ما جئنا من أجل الحديث فيه. كنت صامتاً أغلب الوقت ، آكل السلطة ذات الألوان المبهجة بتمهل، أنتقل من الطماطم إلى البنجر ثم حلقات الخيار ، وهى تنتقل من أنواع السلطات والطعام إلى أصناف الصديقات والسيارات والأطباء والعلاقات الإنسانية. وحين قفزت كلمة "العلاقات" إلى لسانها أمسكت بها ولم تفلتها، فقد كانت الكلمة التى فتحت باب ما بيننا.

كانت تتكلم دفعة واحدة كأنها تعيد ترديد ما أعدته من كلام دون أن تنظر إلى وجهى، وبصوت محايد كمذيع نشرة أخبار. قالت إن مكان الآخرين فى حياتها مكان واضح محدد وأنها تكره الغموض والالتباس وإن مكانى هو سر خاص بها وحدها ، وأنها تريد لحضورى فى حياتها أن يهب جسدها روح جديدة. روح كلمة تعنى كل شىء ولا تعنى أى شىء على الإطلاق.

وقالت أيضاً إنها تحبنى. وهى تستخدم هذه الكلمة كثيراً . كأن تقول إنها تحب المكرونة والرقص الشرقي واليوجا وابنتها والملح قليلاً فى الطعام والنوم ظهراً ، وقيادة السيارات ليلاً. كررت إنها تحبنى بلا طموح ولا وعود ، وإن وجودى يضفى على اهتمامها بابنتها وبأصدقائها وبنفسها طابعاً ساراً. حبى يجعل حياتها أجمل وأحلى !

كانت جافة ، حادة كما يليق بجراح على الرغم من أن اختصاصها الطبى الحالى يتوقف عند حد تحليل عينات البول والبراز والدم.

أكدت أنها لا تعد بشىء. لا تريد أكثر مما تأخذ منى ، بل تريد أقل قليلاً ، ثم.. لماذا أجعل الحياة كلها تدور حولها ؟!

هى لا تريد أن تجد أحداً أو شيئاً. إنها تبحث. فقط. عن نفسها. فلماذا لا أفهم ؟

لم أفهم سوى أنها بسيطة وصريحة إلى حدٍ أذهلنى.

ابتسمت وأنا ألوك بقايا السلطة فى فمى ، والطعنات الجديدة التى لم أكن أتصورها.

لم أنم تلك الليلة.

فى الصباح الباكر خرجت من البيت. ركبتُ سيارة بيجو أجرة إلى الإسكندرية.

فضلت البيجو عن القطار والسوبرجيت لأن احتمال وقوع

الحوادث أكبر على الطرق السريعة.كنت فى حاجة لمشاهدة البحر. حين وصلت إلى الإسكندرية بدون حادثة على الطريق ، كان البحر ذا رائحة نتنة ، وامتداده الشاسع مخنوق بخوازيق قديمة صدئة فى المرسى القديمة.

أيقنت أننى جئت خطأ إلى مكان أحبه. أكلت سمك وجمبرى فى الأزاريطة وشربت ثلاث زجاجات بيرة وأصبحت معدتى بالوعة ممتلئة لآخرها. دخلت سينما وشاهدت فيلماً كوميدياً ولم أضحك مع الجمهور الذى ملأ الصالة بضحكه وتصفيقه.

كنت غير صالح لشىء فى ذلك اليوم.

33

"عواذلى راموا سلوتى

قلتُ ما كل قلب على البلوى بصابر".

تحولت عيناى الاثنتان . عدستى الوحيدة وكاميرتى الديجتال الجديدة التى أربض خلفها محتضناً جسدها . ويدىّ على بطنها . تحولتا وتحولت أنا إلى أذن.. أذن ضخمة هائلة حساسة تلتهم الصوت الشجى المكسور . قوة انكساره مفزعة . وهو يتضرع ويتألم . ويشتكى . قوة انهياره هادرة وهو يستغيث من ألم الفرقة والوجد.

وعلى الرغم من الطنين الرتيب المتصل الذى تحدثه أنفاس ما يقرب من عشرة آلاف شخص فى هذا الحيز المحدود من مقبرة إحدى أميرات أسرة محمد على فى حضن جبل المقطم . فقد كان صوت الشيخ محمد الأشرفى قادراً علىاحتواء العالم . قادراً على إسكات الشياطين و الأبالسة التى تعربد فى

النفوس، قادراً على طردها من هذا المكان. تصمت الأجساد وتتحرر من قيود الهنا والآن . وتعربد عربدة فرح متواصل . كأن الناس فى لحظة خلقهم الأولى . بشر أحرار . بشر متحررون . فرحون بالوجود. قلت :

" الموالد أفراح الفقراء ".

" يا مولانا . صور الناس اللى بيفقروا وبطّل فلسفة ".

كان صوت نعمان عالياً . حاداً ومهزوزاً سكبه فى طبلة أذنى، وفمه يكاد يطبق على صوانها. سببته بأقصى ما أستطيع من قوة .ودفعته بذراعى فى صدره فاتنتر بعيداً وسقط على صف ذاكرين . تركوه يسقط على الحصير أمامهم. عدلت "الزووم" على وجه الشيخ.

عندما اقتربت، اقتربت أكثر من العينين والشفتين ولحم الوجه هالنى ما رأيت. ندمت على فعلتى القبيحة ولم أنزع عينى عن العدسة. كان يجب أن أترك مسافة مناسبة . "مِدْيَمْ" أو" تُوتَالة" لقطة عامة بعيدة أو متوسطة.. اللّه يخرب بيتك يا ناصر. ألا تكتفى بالجلال، الجلال الباهى المهيب، جلالك، جلال صوتك محير غامض، استثنائى، فريد، تهتز روحى بالأشواق . أنا الذى نما عودى على أورادكم وأناشيدكم ومحبتكم . أعرفكم . ولا أنكر سوى نفسى، لتبتلع الأرض من يروم الجمال هنا . الجمال كفر المحب بالمحبوب، أصابنى مس.. عليل، ومريض بهذه الآلة التى أعرفها كما أعرف لون أظافرى وسوء طويتى. الكاميرا المخبولة، الوحش، تقترب وتفضح، تبتعد وتكشف،

تغوص فى التفاصيل. تُبَصّر الأعمى . تصدم وتذل . تُجمّل وتكذب وتعرى الجميع من الثياب والنيات . تصطنع وتدارى . تجمع الأضداد . والمتناقضات مزهوة بوجودها وحده . تسلبنى الإرادة والاختيار . متهورة وهمجية . بربرية من زمن الأصنام الجديدة.. يا شيخ . لا تعبأ بها . تخيل المغرورة الصفيقة لا يخيفها ثعبانك الملفوف حول رأسك . تراه مجرد شال صعيدى . لا ترى لفته ودورانه حول رأسك . لا تؤمن بالرموز . ولا ترعبها نظرات عينيك . عينيك الميتتين . لا تعبير فيهما . لا شىء.. يا أشرفى مدد . مدد يا أبو الجلال والرفعة . قلوب العاشقين لها عيون وبعيون قلوبنا نراك . نعرف جوهرك الأسمى . افقأ عينى المحسوسة . عينى اللئيمة . عين قبحى وسوأتى وشرورى . عينى. عدستى التكنولوجية تسلط عليها . افنها هذه الجمادة المتوحشة.

أنت لا تجيد الغياب . ولا ادعاء الطهر والبراءة . وجهك ليس فيه سيماء الصالحين . عيناك . واللهّ . ميتتان يا شيخ . وجهك أسطح . بشرتك جير . جير يا شيخ. بها آثار جدرى قديم. ملامحك ملامح لص . قاطع طريق . قاتل محترف . بهلوان يمثل دور زعيم عصابة.

" اصحى.. خد المجنون ده زووم . التخين اللى لابس أسود ف أسود".

وسخ وغبى . مخرج أهبل لا يعرف . وكاميرا ملعون أبيها. عمياء لا ترى من الأصل.

تغير الإيقاع . صار أسرع وأقوى . لاهثًا فى ذروة الاندفاع نحو النهاية. وكان صوته يصل إلى أعالى جواب الجواب جليلاً صادحاً ولكننى أسمعه وقد فقد كل روعته. اهتز الناس من النشوة ولذة الوصل والوصول . تسارعت حركات أجساد الذاكرين الدائرين حول أنفسهم . والمطوحين بالأذرع والأرجل إلى آخرها. والقافزين لأعلى عكس عجلة الجاذبية . لا يكادون يمسون الأرض . طائرين . الشيوخ والشباب . والكهول وبعض النساء والأطفال. طاروا وارتفعوا وفقدوا حواسهم وأجسادهم . وتعلقوا بالروح العظيمة التى تظل هذه البقعة من الأرض. صارت السماء فوق رؤوسهم يمسونها بأنامل أصابعهم فتفيض وجوههم ببشر . وتسطع منها أنوار ساطعة . وجوههم شموس صغيرة تشرق فى عتمة هذا الليل . ثم تشنجوا وفقدوا السيطرة على الجسد والروح . وسقطوا على الأرض فوق الحصير المهروس بأقدامهم الحافية . والمنتعلة أحذية رخيصة . سقطوا وكانت كاميرتى ترصدهم بتربص وتسير فوق أجسادهم الممدودة على الأرض العارية وعلى الحصير.. وكان سقوطى أنا مروعاً خلف عدستها الملعونة.

34

أعرف. أعرف أن كل شىء إلى زوال . أن للحكايات والأفلام والمسرحيات نهايات . تماماً مثل نهاية اليوم . ونهاية الشبع ونهاية الرغبة. كل شىء يسير نحو مصيره . السرعة هى المختلفة . أحياناً أسرع قليلاً مما يجب . أبطأ قليلاً . لكن . كلنا سيصل إلى هناك حيث لا نعرف دلالة النهاية أبداً قبل أن تقع بالفعل.

هذه المرأة تعرف تماماً ماذا تريد . وماذا تريد منى . هذا ما يؤلمنى . ما يرعبنى منها. إنها لن تتورط إلى شوط أبعد أبداً كما أريد أنا أن يكون. أن أرغب فى بيت . فى وطن . فى امرأة . فى صاحب . يعنى ألا أقنع أبداً . يعنى أن أظل فى حاجة إلى شىء آخر لا أعرف كنهه على وجه التحديد . لا أقنع ولا أرضى . ولا أتوقف عن الطلب والإلحاح . والتشبث بما أرغب.

هى لن تتورط إلى مسافة أبعد. ترسم الحدود بدقة ولديها خريطة كاملة واضحة لمعظم الأشياء . فى قلبها عروس

صغيرة ضخمة . ابنة أكلت الكثير من الهامبورجر والبيتزا والتوست والحاشى والمكبوس فى رغد الخليج العربى . ولا تريد أن تبقى بمصر . وفى مساحة ما شاب تفكر فيه الآن كقيد صغير هش . وهى التى كانت تعتقد أنه قد آن الأوان للتخلص من كل القيود. لديها . أيضاً . سيارة تحبها. اقترحت عليها ذات مرة أن تستبدلها بحصان وعربة خشبية صغيرة ومقعدين بحيث تصير فى جمال الحنطور ورزانته . وافقت بشرط أن أقوم أنا بدور الحصان . وأن أجر عربتها خلفى. فكرت أن لدىّ حوافر ممتازة وظهر قوى. وإننى سأكون قادراً على تحمل ضربات سوطها، الذى تحب أن تلسع به برفق ونعومة . ومع ذلك صدمت من تشبيهى بحصان!

35

كانت فاتن تسبقنى بنحو أربعة أمتار . سارت بخطوات متمهلة حتى نهاية حافة الجبل . تحت قدميها مباشرةً انحدار حاد مُفاجىء. صارت واقفة على شفا سن الجبل يفصلها عن المدينة آلاف الأقدام. كانت هادئة صامتة تتطلع من هذا الارتفاع الشاهق إلى القاهرة . إلى ظلال وأشباح قلعة محمد على . والمآذن المتناثرة فى كل ناحية . والبنايات العتيقة الآيلة للسقوط والأخرى الصامدة ضد الزمن . تظهر الأبراج السكنية الحديثة والفنادق العالية متناثرة كأعمدة بقت من مدينة سماوية طُمرت تحت فيضان. أعرفها من هذه النقطة التى وقفت عندها كثيراً. بقع ضوء ومصابيح وأضواء متحركة كانت تُضىء سماء تلك الليلة المعتمة. لا قمر . والنجوم قليلة متباعدة. خيّل إلىَّ أنها تبتسم للسيارات المارقة على طريق صلاح سالم التى تبدو من هنا نملاً صغيراً متحركاً.كنت أراقبها من مكانى وأعبث بقدمى فى الرمل. أحاول التفكير فى شىء غيرها. انحنت قليلاً إلى الأمام . ووضعت

يديها على ركبتيها وراحت تحرك رأسها ببطء من اليمين إلى اليسار مثل كاميرا تصور منظراً مستعرضاً متأنياً للقاهرة فى الليل. تلفت حولى فلم أجد أحداً. ذهب بائع المثلجات الصعيدى . وبائعة الذرة المشوى العجوز وانفض تجوال الهاربين من قيظ أغسطس . الساهرين والمتسكعين على كورنيش المقطم . لم يبق سوانا . جئنا فى نحو الثانية بعد منتصف الليل . كانوا لا يزالون هنا . حسناً لم يبق سوانا. استدارت ونظرت نحوى. ببساطة وبطء راحت تخلع بلوزتها البيضاء. كانت لا ترتدى سوتيانًا فقفز نهداها الكبيران منتفخين ومتهدلين قليلاً إلى أسفل . حدقت فى الأرض تبحث عن شىء. تحركت خطوات حتى وجدت حجراً كبيراً . جلست عليه وأخذت تفك شعرها وتخلصه من المشابك وتضعها فى حقيبتها الصغيرة. خلعت حذاءها والجوارب وبقيت فى بنطلونها الجينز الضيق. كنتُ مازلت واقفاً فى مكانى أتأمل شبحها العارى فى الظلام. وأستكمل بخيالى تفاصيل جسدها المحفورة فى دماغى. مثل تمثال فرعونى ساكن ومطمئن ومهيب كانت تجلس فوق حجرها. همست باسمى برقة وإغواء وهى تقف لتخلع بنطلونها. فردت ذراعيها فى الهواء. وفتحت حضنها وانفرج فخذاها العاريان. ظلت تنتظرنى صامتة دقائق طويلة وأنا واجم فى مكانى . يداى فى جيبىّ ورأسى مهدل قليلاً على رقبتى. ونظراتى تتردد بين الأرض وبينها. يسرى فى جوفى صوت نداءها الصامت . ويغشى عينى عريها المضىء فى الظلمة. تحركت نحوها ثقيلاً بطيئاً مثل فيل عجوز. وقفت خلفها واحتضنتها برفق تاركاً جِلدها العرقان تحت خشونة بنطلونى

وقميصى. أنزلتها من فوق حجرها ورحت أدفعها ببطء نحو حافة الجبل . وأنا أقبّل كتفيها ورقبتها قبلات طويلة . وأدفن وجهى فى ظهرها . فى رائحة جسدها وعرقه ونعومته . وأغالب دموعى التى لا أريد أن تبلل جلدها. كانت تطيع حركتى بسهولة ونزق. دفعتها حتى وصلنا إلى سن الجبل . تراجعت للوراء خطوتين فتراجعت معها دون أن ينفصل جسدانا. ركعت واستندت بكفىّ يديها على الأرض . وصارت تحملق فى منظرها المفضل . أمامها القاهرة فى ليلة شبه مظلمة من أعلى نقطة فى جبل المقطم. وخلفها أنا . عشيقها المفضل. فتحت نفسها لى وهى مقعية ترقص رقصة لطيفة وشبقية . أنفاسها تتلاحق وهى تأن بغنج ضائقة ببطئى وانفصالى عنها ويدها تتحرك باحثة عن انتصابى. كان علىّ فى تلك اللحظة أن أدفعها دفعة واحدة قوية براحتىّ يدىّ . بقبضتىّ حتى تسقط من هنا ككرة صغيرة تستغرق فى الهواء ثلاث دقائق لتصل إلى ملعب الخيول أمام القلعة. دفعة واحدة بسيطة وتستقر فاتن جثة هامدة عارية وينتهى بعدها كل عذابى.

36

هل استطعتُ فعلاً . أن أرفع يدىّ فى الهواء. هل كورتهما فى قبضتين. ثم دفعتهما نحوها بقوة وإصرار . ووضعتهما على ردفيها العاريين . وفى ثانية واحدة حاسمة. دفعتها. دفعتُ فاتن وأنا ثابت لا أهتز . وقدمى متشبثة بالأرض. كان لى وجه صارم قاس مرعب. وجه قاتل بعينين جاحظتين وشفتين مذمومتين بقوة. وجلد مشدود وبارد.. هل فعلتها ؟ هل قتلتها ؟

أصحو من نومى مفزوعاً . ألهث وألتقط كوب الماء من فوق منضدة صغيرة إلى جوار سريرى. أشربه جرعة واحدة. وأهدأ. رأيتها فى نومى. كانت امرأة قصيرة رشيقة بلا نهدين. وشعر قصير . وشورت من جلد الماعز يستر عورتها فقط. صدرها المسطح ينبت فيه زغب أسود . وفى يدها حربة طويلة تغرسها في صدرى وتنتزعها . وتعود تغرسها ببطء وقوة دون أن يرتعش فيها شىء. وجهها لا ملامح له ولا أعرف من أين ترى. لا يخرج من صدرى شىء. لا يتفجر الدم من جسدى. فقط

حفرة صغيرة بين رئتى تنفتح . عيونى مفتوحة عليها. أراها وهى تغرس حربتها . وكأنها تلعب وتلهو . تداعب جسماً عزيزاً عليها . لكن الألم . ألم اللذة الحار يتصاعد فى صدرى . فى القناة المفتوحة بين الرئتين . ألم فتق الجلد وانفصال الخلايا . وتمزق اللحم . ألم بارد بلا دماء. ألم يتصاعد منى وأنا أرانى. وأنا أراها تعمل مثل آلة . حركتها ميكانيكية . لا تحمل ضغينة ولا تنتقم . فقط تلهو بجثتى.

أصحو مرعوباً. مرعوباً.

هل تحولت إلى شبح يعذبنى كل ليلة دون أن يقتلنى إمعاناً فى الانتقام ؟

لا. لا أعرف.

ربما. ربما طارحتها الغرام فى تلك الليلة . فى الظلام . فوق جبل المقطم . رويتها كما كنتُ أفعل دائماً. صرخت صرخة شهوتها حين وصلت إلى الذروة . وقبلت شفتىّ. علقت يدها حول خصرى. ومشينا صامتين . أحس أنها امرأتى وأنها لى وأننى أريدها. أريدها أطول وقت ممكن . شهور أخرى . أيام وليال. وساعات ودقائق أخرى طويلة . لا أريدها أن تتركنى وتمضى وتقول وداعاً. ركبنا سيارتها وعدنا إلى المدينة . وصعدنا إلى البيت. دخلنا وأغلقتُ باب الشقة خلفى جيداً. قالت إنها تحبنى. لا تحب فى العالم غيرى . وأنا قلت إننى أفهم . وإننى لا أشعر بألم وإننى لا أملك أن أسامح . وإننى أريدها كما هى . أريدها.

ثم نمنا متجاورين غير عابئين بالعالم فى الخارج . وانتهى كل شىء . انتهى . وأننا واصلنا حياتنا معاً. معاً. معاً كما كنا .
كما كنا.

" فتحتْ نفسها لي وهي مقعية ترقص رقصة لطيفة وشبقية ، أنفاسها تتلاحق ، تأن بغنج ضائقة ببطئي وانفصالي عنها ،ويدها تتحرك باحثة عني .

كان عليّ في تلك اللحظة أن أدفعها دفعة واحدة قوية براحتيّ يديّ ، بقبضتيّ حتى تسقط من هنا ككرة صغيرة تستغرق في الهواء ثلاث دقائق لتصل إلى ملعب الخيول أمام القلعة ، دفعة واحدة بسيطة وتستقر فاتن جثة هامدة عارية ،و ينتهي بعدها كل عذابي ."

التصميم : عمرو الكفراوى

الدار